فهـرس

نيتشه ، فرويد ، ماركس

ميشيل فوكـــو
ترجمة : ع. بنعبد العالى

عندما عرض على مشروع هاته ((المائدة المستديرة)) × بدا لى انه مشروع بالغ الاهمية من غير ان يخلو من ارباك واضح. لذا اقترح عليكم مخرجا أعرض عليكم فيه بعض الافكـــار التـى تتعلق بتقنيات التأويــل عند ماركس نيتشه وفرويـــد .

والحقيقة ان هاته الافكار تخفى من ورائها حلما : وهـــو ان نتمكن ذات يوم من وضع نوع من المجامـــع العامة ومـــن الموسوعات التى تضم جميع تقنيات التاويل التى امكننا معرفتها ابتداء من النحاة الاغريق الى ايامنـــا هاته . وانى اظن ان هاته المدونـــة الضخمة التى تضم جميع تقنيات التاويل لم تكتب منها حتى الآن الا فصـــول قليلة .

يظهر لى ان بامكاننا ان نقرر ما يلى كمقدمة عامة لفكـــرة انشاء تاريخ لتقنيات التأويل : ان اللغة ، لغة الثقافات الهنــد أوروبية على الاقل ، قد ولدت دوما نوعين من الاعتقادات :

× مناظرة اقيمت حول ((نيتشـه))

ـ الاعتقاد بأن اللغة لا تقول بالضبط ما تعنيه . فالمعنى الذى نفهمه والذى يتجلى مباشرة قد لا يكون فى الحقيقة الا معنى اضعف يخفي معنى آخر ويغلفه ، لكنه ينقله بالرغم من كل شىء بحيث يكون هذا المعنى هو المعنى الاقوى والمعنى الخفى فى ذات الوقت وهذا ما كان الاغريق يطلقون عليه الـ allegoïa والـ Hyponoïa

ـ ثم ان اللغة تولد هذا الاعتقاد الثانى وهو انها تتجاوز صورتها اللفظية الصرف . وان هناك اشياء اخرى فى العالم تتكلم دون ان تكون لغة . فقد تكون الطبيعة والبحر وحفيف الاشجار والحيوانات والاوجه والاقنعة والسكاكين ، قد تكون هاته الاشياء كلها تتكلم . ولعل هناك لغة تتخذ صورة غير لفظية . يتعلق الامر اذا شئتم بالـ Semaïnon الذى كان يتحدث عنه الاغريق .

هذان الاعتقادان اللذان نلحظ ظهورهما عند الاغريق ، لم يختفيا بعد . وما زالا يجدان الحياة بيننا اذ أننا ، وبالضبط ابتداء من القرن التاسع عشر ، عدنا الى الاعتقاد بان الحركات الخرساء والامراض وكل الاشياء التى تضج من حولنا، يمكنها ان تتكلم . ونحن نصغى اكثر من أى وقت مضى الى هاته اللغة الممكنة محاولين ان نعثر من وراء الكلمات على حديث اكثر اهمية .

اعتقد ان كل ثقافة ، واقصد كل شكل ثقافى من الاشكال التى عرفتها الحضارة الغربية ، قد كانت له منظومة تاويله وتقنياته ومناهجه وطرقه الخاصة للكشف عن اللغة التى تريد ان تعنى غير ما تقوله ، وللتنقيب عن وجود لغة خارج اللغة .

يظهر اذن ان هناك مشروعا ينبغي الخوض فيه لاقامة جدول لجميع منظومات التأويل .

لكى نفهم منظومة التاويل التى اقامها القرن التاسع عشر ، ولكى ندرك ، بالتالى ، اى منظومة تأويل ما زلنا ننتمى اليها نحن كذلك ، يظهر لى ان علينا ان نرجع الى عهد مضى والى نوع من التقنية كذلك الذى عرفه القرن السادس عشر مثلا ، ثم ان يحدد مجال التاويل فى هذا العهد ، وما كان يشكل الحقل العام والوحدة الدنيا التى ينصب عليها التاويل هو التشبيه . فحيثما كانت الاشياء تتشابه ، وحيثما كان هناك تشابه ، كان هناك معنى وكان بالامكان الحفر وراءه . ونحن نعلم جيدا الدور الاساسى الذى تعبه التشابه ، وجميع المفاهيم التى تحوم حوله ، سواء داخل الكوسمولوجيا او علم النبات وعلم الحيوان او فى الفلسفة خلال القرن السادس عشر . الحق ان سلسلة التشابهات تبدو لنا نحن ، ابناء القرن العشرين، مختلطة غامضة . غير ان منظومة التشابه هاته قد كانت محكمة التنسيق خلال القرن السادس عشر وكانت تضم خمسة مفاهيم على الاقل محددة ادق تحديد :

— مفهوم التلاؤم ويعنى التوافق (مثلا توافق النفس مع الجسد ، وتوافق السلسلة الحيوانية مع السلسلة النباتية) .

— مفهوم التعاطف ويعنى وحدة الاعراض واتحادها فى جواهر مختلفة .

— مفهوم الـ Emulatio الذى يعنى التوازى الغريب بين صفات جواهر او كائنات متمايزة كما لو كانت هاته الصفات يعكس بعضها بعضا فى هذا الجوهر او ذاك . (وهكذا يفسر بورتا ان الوجه البشرى يشكل بجانب الاجزاء السبعة

التى يعينها توازيا مع السماء وكواكبها السبعـــة) •

ــ مفهوم الأثر الذى يشكل ، من بين الخصائص انجليـــة لفرد ، صورة الخاصية غير مرئية وخفية •

ــ ثم ، بالطبع ، مفهوم التجانس الذى يعنى وحـــــــدة النسب بين جوهرين متمايزين فاكـــثـــر •

كانت نظرية الدليل Signe ، وتقنيات التاويل فى هـــذا المهد اذن ، تقوم على تعريف يحدد بوضوح جميع الانواع الممكنة للتشابه • كما كانت تقيم اسس نوعين متمايزين من المعارف : الـــ Cognitio التى كانت تعنى الانتقال الجانبى من تشابــه الى آخـــر • والـــ Divnatio التى كانت تعنى المعرفة المعمقة التى تنتقل من تشابه سطحى الى تشابه اكثر عمقـــا • وكانت جميع هاته التشابهات تجسد اجماع العالم الذى يؤسسها وتعبر عن اتفاقه ووحدته • وكانت تقابل الـــ Simulacrum اى التشابه المحرف الذى يقوم على البون الذى يفصل الالـــه عن الشيطـــان •

* * *

اذا كان تطور الفكر الغربى خلال القرنين السابع والثامن عشر قد ترك تقنيـــات التاويل التى عرفها القرن السادس عشر معلقة ، واذا كان النقـــد الذى وجهـــه (بيكون) و (ديكـــارت) للتشابه قد لعب دورا كبيرا فى وضع تلك التقنيـــات بين قوسين، فان القرن التاسع عشر وعلى الاخص ماركس ونيتشه وفرويـــد قد طرحوا امامنا امكانية اخرى للتاويل • انهم اسسوا امكانية قيام تاويـــل جديـــد •

فالكتاب الاول من الرأسمال ، ونصوص مثل (مولـــــد المأساة) و (نشأة الاخلاق) الـ Traumdeutung ان كــل هاته النصوص تطرح أمامنا تقنيات للتأويل . وما احدثته هاتــه المؤلفات من صدمة ، وما خلفته من جرح فى الفكــر الغربــى ، ربما يعود الى كونها قد أقامت أمام انظارنا شيئا كان ماركــس ذاته قد سماه (هير غليفيات) ، الامر الذى وضعنا فى موقف غير مريح ، لكون هاته التقنيات تخصنا نحن ، ولاننا ، نحن المؤولين، قد أخذنا نؤول ذواتنا عن طريق هاته التقنيات . وعلينا ان نفحص هؤلاء المؤولين أنفسهم سواء فرويد او نيتشه أو ماركس عــن طريق تقنياتهم ذاتها بحيث اننا نجد انفسنا غارقين ضمن سلسلة من الانعكاســات المرآتية .

يقول فرويد فى احدى مؤلفاته بان الثقافة الغربية قد عرفت ثلاثة جروح نرجسية كبيرة : الجرح الذى فرضه (كوبيرنيــك) ، وذاك الذى تركه داروين عندما كشف بأن الانسان ينحدر عــن القردة ، واخيرا الجرح الذى خلفه فرويد ذاته عندما بين بدوره ان الشعور يقوم على اللاشعور . وانا اتساءل بدورى عما اذا لم يكن باستطاعتنا أن نقول أن فرويد ونيتشه وماركس ، عندما اقحمونا فى مهمة تأويل ينعكس دوما على ذاته ، ألم يشكلــوا من حولنا وبالنسبة لنا نحن تلك المرايا التى تعكس عنا صورا لا تضمد جروحها فتشكل نرجسيتنا اليــوم . وعلى كل حــال ، وهاته هى النقطة التى سأقترح عليكم حولها بعض الافكــــار ، فيظهر لى ان ماركس ونيتشه وفرويد لم يضيفوا دلائل جديــدة للعالم الغربى . انهم لم يضفوا معنى جديدا على اشياء لم يكــن لها معنى . وانما غيروا فى الحقيقة طبيعة الدليــل وبدلوا الكيفية التى كان بامكان الدليــل ان يؤول بهــا .

ان أول سؤال أود ان أطرحه هو السؤال الآتى ! ألم يحدث ماركس وفرويد ونيتشه تغييرات عميقة على المكان الذى تتوزع فيه الدلائل والعلامات فتحدد بموقعها فيه ؟

ففي العهد الذى انطلقنا منه واتخذناه مرجعا لنا ، وأعنى خلال القرن السادس عشر ، كانت الدلائل والعلامات تتوزع بكيفية متجانسة فى مكان ، كان هو ذاته مكانا متجانسا ، كما ان هذا التوزيع كان يتم حسب جميع اتجاهات ذلك المكان . فدلائل الارض كانت تحيل الى السماء ، ولكنها كانت ترد فى ذات الوقت الى عالم ما تحت الارض . انها كانت تحيل من الانسان الى الحيوان ، ومن الحيوان الى النبات والعكس . وابتداء من القرن التاسع عشر ، أى من فرويد وماركس ونيتشه ، اصبحت الدلائل والعلامات تتدرج فى مكان متفاوت الاجزاء وحسب بعد يمكننا ان نطلق عليه بعد الاعماق ، شريطة الا نفهم من هذا البعد الباطنى وانما بعد العمق الخارجى .

ينصرف ذهنى ، بصفة خاصة ، الى ذلك الجدال الطويل الذى ما فتىء نيتشه يقيمه مع الاعماق . فنحن نجد عنده انتقادا للاعماق الفكرية ولاعماق الشعور ، تلك الاعماق التى بين هوانها من اختراع الفلاسفة . فهؤلاء يدعون ان هاته الاعماق هى بحث خالص باطنى عن الحقيقة . يبين نيتشه كيف تفضى هاته الاعماق الى الخنوع والنفاق ولبس الاقنعة . بحيث يكون على المؤول اذا ما هو استعرض علامات هاته الاعماق ليفضحها ، يكون عليه ان ينزل نحو اسفل الخط العمودى ليبين ان هذا العمق الباطنى هو خلاف لما يعنيه ويدعيه . على المؤول اذن ان ينزل نحو القعر ، عليه «ان يكون منقبا جيدا فى الدواخل سابرا للاعماق » كما يقول نيتشه ذاته . (الفجر ، الفقرة 446).

غير أننا لا نستطيع ان نقطع هذا الخط النازل عندما نقوم بعملية التأويل ، الا اذا كانت غايتنا استعادة الخارج المشع الذى اقبر وغلف . ذلك انه اذا كان على المؤول ان ينزل هو ذاته نحو الاعماق منقبا فان حركة التأويل تكون على العكس من ذلك ، حركة سطح يتزايد علوه بحيث يدع العمق ينكشف من فوقه شيئا فشيئا . وحينئذ تكون الاعماق قد استعدت كما لو كانت سرا مطلق السطحية بحيث يكون طيران النسر وصعود الجبال، وجميع تلك الاتجاهات العمودية التى يزخر بها كتاب (زرادشت)، عبارة عن قلب للاعماق وكشف عما كانت تخفيه وكونها لم تكن الا السطح وقد انثنى وطرأ عليه ماطرا وكلما اتخذ العالم تحت انظارنا شكلا اكثر عمقا فاننا سنتبين ان جميع الاشياء التى كانت تشكل اعماق الانسان لم تكن الا لعب اطفال .

أتساءل عما اذا لم يكن فى استطاعتنا ان نقارن هذا الالحاح على المكان وهذا الانقلب الذى أحدثه نيتشه للاعماق ، مع ما قام به ماركس ازاء ما هو مسطح رغم ما يبدو من اختلاف بين الامرين . وبالفعل ، فان مفهوم السطح شديد الاهمية عند ماركس . ففى بداية الرأسمال يبين ماركس كيف ينبغى ان ينغمس فى الضباب كى يبين ان ليس هناك أشباح ولا الغاز عميقة لان كل ما يوجد من عمق فى مفهوم البرجوازية عن النقود والرأسمال والقيمة ليس فى الحقيقة الا سطحيات .

وعلينا بالطبع ان نذكر بمكان التأويل الذى اقامه فرويد. لا فيما يخص التدرج المكانى للشعور واللاشعور فحسب، بل ما يتعلق بالقواعد التى صاغها لغرض تحليلى ولكى يستعملها المحلل ليفحص كل ما يقال خلال سلسلة الكلام . وعلينا ان نتذكر المكان المادى الذى أولاه فرويد كبير عناية والذى يجعل المريض يمتد تحت انظار المحلل الذى ينظر اليه من فوق .

* * *

اما الفكرة الثانية التى اود أن اعرضها عليكم ، والتى لا تخلو من ارتباط مع هاته النقطة الاولى ، فهى كون التاويـل قد اصبح ، انطلاقا من هؤلاء المفكرين الثلاثة اللذين نتحدث عنهم ، مهمـة لا نهايـة لهـا .

والحق أنه كان كذلك حتى خلال القرن السادس عشـر . ولكن العلامات كانت تحيل الى بعضها البعض تسبب بسيـط وهو ان التشابه لا يمكن ان يكون الا محدودا . وابتـداء من القـرن التاسع عشر اصبحت الدلائـل تترابط فيما بينهـا لتشكل سلسلة لا نهاية لها ولا يؤدى على نهايتها لا لكونها تقوم على تشابه عديم الحدود بل لان هناك انفتاحا وفوهة لا يمكـن ان تنغلـق .

ان عدم اكتمال التأويل وقابليته الدائمة للفحص ، وكونـه يظل دوما تاويلا معلقا ، كل هذا نجده بصفة متماثلة سواء عنـد ماركس او نيتشه او فرويد وذلك فى صورة رفض للبدايـة . فماركس كان يرفض الحديث عن حياة (حـى بن يقظـان) ، ونيتشه كان يعطى اهمية شديدة للتمييز بين البداية والاصـل والفصل بينهما ، اما فرويد فانه كان يلح على الصبغة اللامكتملة للطريقة التراجعية التحليلية . ونحن نلاحظ هذه التجربة بكيفية أكثر حدة عند نيتشه وفرويد على الخصوص ، اكثر مما نلفيها عند ماركس . واظن انها تجربة اساسية بالنسبة للتأويل المعاصر . وهى تتلخص فى كوننا ، كلما اغرقنا فى التاويل ، نقترب ، فى ذات الوقت من منطقة شديدة الخطورة لا يرتد عندها التاويل علـى اعقابه فحسب ، بل يختفى كتاويل محدثا معه اختفاء المؤول ذاته . فبما ان النقطة النهائية للتاويل تظل دوما نقطة تقريبية ، فان ذلك يعنى وجود نقطـة انفصـال .

ونحن نعلم جيدا كيف تم الاكتشاف التدريجي لخاصية الانفتاح البنيوي للتأويل عند فرويد لقد ظهر هذا الانفتاح في شكل مستتر في Traumdeutung عند ما حاول فرويد ان يحلل احلامه هو فاورد اسبابا تتعلق بالحياء وبكتمان الاسرار الشخصية ليتوقف عن التأويل .

وفي تحليل (دورا) نلاحظ هاته الفكرة التي ترى بانه ينبغي على التأويل ان يتوقف وانه لا يمكن ان يبلغ نهايته بسبب شيء سيطلق عليه فرويد، سنوات بعد ذلك ، لفظ الانتقال . وفيما بعد سيتأكد ، خلال دراسة الانتقال، ان التحليل لا يستنفذ لكون العلاقة التي تربط المحلل بالمحلل تظل لانهائية الاشكال . ولاتنفك تطرح عدة مشكلات . ونحن نعلم بوضوح ان هاته العلاقة تشكل ركنا اساسيا من اركان التحليل النفسي وتفتح مجالات وآفاق للتوسع دون ان تتمكن من الاكتمال .

ومن الجلي ان التأويل عند نيتشه ايضا يظل دوما ناقصا غير تام . فما هي الفلسفة عنده ان لم تكن ذلك النوع من فقه اللغة الذي يظل دوما معلقا على أهبة لان يفاجئنا ؟ انها نوع من فقه اللغة الذي لا يعرف الحدود والذي يجد اكتماله دوما عند نقطة ابعد . انها فقه لغة لا يعرف الثبات . ولماذا ؟ ذلك ان ((الموت عن طريق المعرفة المطلقة يمكن ان يكون جزءا من الاسس التي يقوم عليها الوجود)) كما يقول هو ذاته في كتابه ((ما وراء الخير والشر . الفقرة 39)) . وبالرغم من ذلك فان نيتشه قد بين في مؤلفه ((هذا هو الانسان)) كم كان اقترابه من تلك المعرفة المطلقة التي تشكل جزءا أساسيا من اسس الوجود . وقد فعل نفس الشيء خلال خريف 1888 في (تورين).

واذا ما نحن نقبنا في مراسلات فرويد عن الاهتمامات التي كانت تشغل باله على الدوام منذ ان اكتشف التحليل النفسي

يكون فى امكاننا ان نتساءل عما اذا لم تكن تجربة فرويد فـى العمق شبيهة بتلك التى عاشها نيتشه . فالمقصـود بالنقطـة التى ينقطع عندها التاويل ، تلك النقطة التى يتجمـع عندها التاويل ليصبح مستحيلا ، المقصود بذلك هو شىء شبيه بتجربة الحمـق .

وقد قاوم نيتشه هاته التجربة اشد المقاومـة . كما انهـا اثارت اعجابه . وانها ذات التجربة التى كافح ضدها فرويـد طيلة حياته دون ان يخلو ذلك الكفاح من عناء ومرارة . وربمـا كانت تجربـة الحمق هاته هى ثمن حركة التاويل التى تقتـرب الى مالا نهايـة له من مركزها والتى تنهار محترقة .

* * *

اعتقد ان خاصية عدم الاكتمال هاته ، وهى خاصية اساسية فى التاويل ، ترتبط بمبدأين آخرين اساسيين هما ايضا . وهمـا يشكلان الى جانب المبدأين السابقين مصادرات التاويل الحديث. اول هذين المبدأين هو انه اذا لم يكن فى استطاعة التاويـل ان يكتمل فذلك لسبب بسيط وهو عدم وجود ما يؤول . فليس هناك عنصر أول ينبغى تأويله وينطلق منه التاويل . لان العناصر كلها تكون فى الحقيقة تأويلا وكل دليل لا يشكل فى ذاته الشىء الـذى يعرض نفسه للتأويل وانما هو تأويل لعلامات أخرى .

واذا شئتم فلنقل انه لا يكون هناك موضوع ما من موضوعات التاويل الا وقد اول من قبـل . بحيث تكون العلاقة التى تقـوم فى عملية التأويل علاقة عنف بقدر ما تكون علاقة توضيـح وابراز . وبالفعل ، فان التاويل لا يكتشف خفايا مـادة للتأويـل تعطى نفسها بشكل سلبى منفعل ، ان التاويل لا يمكنه الا ان يستحوذ وبعنف على تأويل آخر سبق وجوده من قبل فيقلبـه ويقلبه وينـزل عليه ضربـات عنيفـة .

ونحن واجدون هذا حتى عند ماركس الذى لا يؤول تاريخ علاقات الانتاج ، وانما يؤول علاقة تقدم نفسها كتأويل مادامت تدعى انها طبيعة وكذا الامر بالنسبة لفرويد الذى لا يـــؤول العلامات وانما يؤول تأويلات أخرى . وبالفعل فماذا يكتشـــف فرويد وراء الاعراض ؟ انه لا يكتشف ، كما يقـــال ، «صدمات»، بل يبين عن اوهام وتحمله تلك الاوهام من قلق . اى انه يكتشف عن نقطة تكون ، فى وجودها الخاص تأويلا . ان فقدان شهية انطعام مثلا لا يحيلنا آنى الاستعباد مثلما يحيلنا الـــدال الـــى المدلول . بل ان ذلك الفقدان ، من حيث هو دليل وعرض ينبغى تأويله يردنا الى الاوهام التى تتعلق بثدى الام الردىء المريض. هذا الثدى الذى هو تأويل فى حد ذاته وجسم يتكلم . لذا لا يكون على فرويد ان يقوم بتأويل مغاير لما يقدمه له مرضاه فى لغتهم من اعراض . بل ان تاويله يكون تأويلا لتأويـــل ، فى الحـــدود التى يكون فيها هذا التأويل معطى . ونحن نعلم ان فرويد قـــد كشف «الانا الفوقى» عندما قالت له أحدى مريضاته ذات يـــوم «اننـــى اشعـــر بكلب فوقـــى» .

وبنفس الكيفية فان تأويلات نيتشه ستنصب ، هى بدورها، على بعضها البعض . فليس هناك عند نيتشه مدلول اصلـــى . والكلمات ذاتها ليست الا تاويلات . وهى قبل ان تصبح علامات تكون قد قامت ، خلال تاريخها ، بتأويلات . وهى لا تعنى شيئا وتدل عليه الا لكونها تأويلات اصلية . وما يشهد على ما نقولـــه اشتقاق كلمة Agathos (انظر نشأة الاخلاق الجـــزء الاول الفقرات 4 و 5) ، وهذا ما يعنيه نيتشه ايضا عند ما يقول بان الكلمـــات قد اخترعت عن طريق الفئات العليا . فهـــى لا تشير الى مدلول وانما تستدعى عملية تاويل . نتيجة لذلك ، فلسنا مدعوين الى خوض عملية التاويل لان هناك علامات اوليـــة غامضة وانما لان هناك تاويلات ، ولان كل ما ينطق ويتكلم يخفى

من ورائه نسيجا من التأويلات العنيفة ، لهذا السبب هنـــاك علامات ودلائل تحثنا على القيام بتأويل لتأويلها وتدفعنا لان نثور ضدها من حيـث هى علامات . بهذا المعنى يمكننا ان نقـول ان الـ Allegoria والـ Hyponoïa توجد فى اعماق اللغة واساسها وقبلها وليست هى ما انفلت فيما بعد خلــف الكلمات لكى يزحزحها عن مكانهـا ويهزها بل ما ولد هاتـه الكلمات وجعلها تشع بنور لا يقر على حال . لذا كان المـؤول عند نيتشه هو الصدوق . انه ((الصادق)) الحق . لا لكـونـه يكشف عن صدق وحقيقـة مختبئة ويفصح عنهما . بل لانـه ينطق بالتأويل الذى يكون من مهمة حقيقة ما ان تغلفـه . وربما كانت هاته الاسبقية التى يتقدم عن طريقها التاويل على الدلائـل والعلامات هى اهم ما يحتوى عليه التاويل المعاصـر .

ان القول بأن التأويل يسبق الدليل ويتقدمه يفتـرض ان الدليــل ليس كائنا بسيطا (طيبا) مثلما كانت الحال خلال القرن السادس عشر ، حيث كانت غزارة الدلائل والعلامات ، وجـود تشابه بين الاشياء ، دليلين على طيبة الرب ، ولم يكونا ليفصـلا الدليل عن فحواه الا عن طريق حجاب شفاف . وعلى العكس من ذلك يبدو لى انه انطلاقا من فرويد وماركس ونيتشه ، سيصبح الدليل مؤذيا خبيثا وسيتخلى عن طيبته ، اعنى انه اصبـــح يضمر ، بكيفية غامضة ، نوعا من سوء النية . وهذا بمقدار ما ان الدليل تاويــل لا يعطى نفسه ولا قدمها على انها كذلـــك فالعلامات هى تأويلات تحاول ان تبرز ذاتها لا العكــس .

على هذا النحو تحمل النقود كما نجد تحديدها فى كتــاب ((نقد الاقتصاد السياسى)) وعلى الاخص فى الكتاب الاول مـــن ((الرأسمال)) ، وعلى هذا النحو ايضا تعمل الاعراض عند فرويـد .. اما عند نيتشه فان الكلمات والعدالة والتصنيفات الثنائيـة

للخير والشر ، وبالتالى فان العلاقات كلها هى عبارة عن اقنعة . ان الدليل اذ يكتسى هذه الوظيفة الجديدة لاخفاء التأويل وتغطيته يفقد وجوده البسيط وكونه مجرد دال . هذا الوجود الذى كان ما يزال يحتفظ به خلال عصر النهضة . فكما لو ان سمك العلامة قد اتسع وانفتح على المفاهيم السلبية التى كانت ما تزال غريبة بعيدة عن نظرية العلامة . فهاته النظرية لم تكن تعرف الا اللحظة الشفافة للحجاب . اما الآن فستنتظم داخل العلامة شبكة من المفاهيم السلبية والتناقضات والتعارضات واعنى مجموع القوى السلبية التى حللها (دولوز) تحليلا جيدا فى كتابه حول نيتشه .

«قلب الجدل ليقف على قدميه» : اذا كان لهاته العبارة من معنى افليس هو بالضبط استعادة السلب وفعاليته ليشغل ذلك السمك ويحتل ذلك المكان المفتوح اللانهائى الذى لا يحتوى على اى شىء حقيقى ولا يعرف اى حل للتناقض ذلك ان الجدل كان قد قضى على كل هذا عندما اتخذ معنى ايجابيا .

* * *

لنعرض فى النهاية للسمة الاخيرة للتاويل : فالتأويل يجد نفسه مرغما على ان يؤول ذاته الى ما لا نهاية وان يتناول ذاته من جديد وعلى الدوام . تتولد عن ذلك نتيجتان اساسيتان : اولاهما ان التأويل يكون دوما للمجهول الذى قام بالتاويل . فنحن لا نؤول المعنى الذى يوجد فى المدلول وانما نؤول هذا الذى قام بالتأويل . فليس مبدأ التأويل الا المؤول . ولعل ذلك هو المعنى الذى يعطيه نيتشه لكلمة (سيكلوجيا) . اما النتيجة الثانية فهى ان التأويل يكون عليه دوما ان يؤول ذاته وهو لا يملك بدا من ان يؤول ذاته على الدوام . فمقابل زمن العلامات الذى هو

زمن الاجل المحدود ، ومقابل زمن الجدل الذى هو بالرغم من كل شىء زمن خطى ، لدينا زمن التأويل الذى هو زمن دائرى . فهذا الزمن يرغم على ان يمــر من نفس الموقــع الذى مر به من قبل. الامر الذى ينتج عنه ان الخطر الوحيد الذى يتهدد التاويل هــو خطر ، يصدر عن العلامات والدلائل فالقضاء على التاويل هو ان نؤمن بوجود علامات تتمتع بوجود اصلى اولى حقيقى كما لــو كانت آثارا منسجمة بــارزة واضحة منسقــة .

وعلى العكس من ذلك ، فان ما يضمن حياة التاويل هــو الا نؤمن الا بوجود تاويلات . ويبدو ان علينا ان ندرك جيدا هذا الامر الذى يتناساه معظم المفكرين المعاصرين لنا : وهو ان التأويل والسيميلوجيا عدوان لدودان . فاذا كان تاويل ما يرد نفسه الى السيميلوجيا فانه سيكون مضطرا لان يؤمن بوجود العلامــات والدلائل وجودا مطلقا . وحينئذ سيتخلى عن العنف وعــدم الاكتمال ولا نهائية التاويل كى يدع المجال فارغا لرعب الاشارات ولكى يتهم اللغة . وهاهنا نجد الماركسية بعد ماركس . وعلــى العكس من ذلك فاذا ما انغلق التاويل على ذاته، فانه سيقتحم مجال اللغات التى لا تنفك يفضى بعضها الى بعض ، وسيلــج ذلك الميــدان الذى يفصل الحمــق عن اللغة الخالصة . وهاهنا نلفــى نيتشــه .

ترجمة : عبد السلام بنعبد العالــى

محمد اليملاحى

ازمة جنس ام ازمة حرية ؟

طــرح امسألــة الجنس فى مجموعة
((آوصـــال الشجر المقطوعة))

تاتى اهمية طرح المسألة الجنسية فى الاعمال القصصية بالمغرب من نواحى عدة ، تهمنا هنا ناحيتين :

أ ــ الاولى أن مشكلة الجنس اخذت تتقاسم الكثير مــــن الاعمال القصصية بطرق متفاوتة ، جعلت بعض الكتاب يتميزون عن غيرهم فى هذا الميدان ، بحيث اصبح الجنس من المحـــاور الاساسية التى تقوم عليها أعمالهم (زفــزاف والخــورى على سبيـــل المثـــال) .

ب ــ الثانية أن بعض كتابنا يحسبون آن طرح الجنــس فى قصصهم يعتبر من التجديد والثورة على التقاليد الفنية ، مما جعلهم يقعون ضحية الطرح الرخيص للجنس الذى لا يتعــدى

رصد بعض المظاهر الجنسية الخالية من أى مضمون فكرى .
والحق أن الجنس فيه ما يغرى المبدع أن هو أحسن التصرف ، وليس أحسن من أن يتخذ كرمز تستغل فيه كافة الامكانيات الفنية التى تزخر بها هذه العلاقة الانسانية ، وان كنا نسلم بان الشىء ليرتقى الى مستوى الرمز ، ومن المحسوس الى المجرد الا بعد معايشة طويلة له من الانسان ، وهو ما نفتقده فى حياتنا الجنسية ، والا فاين المعايشة السليمة للجنس ، الخالية من العقد؟

لقد تضخم (الأنا الاعلى العربى) على حساب (الأنا) الضعيف ليجعل فى النهاية من الجنس دلالة صارخة على سقوط هذا المجتمع وترديه فى أوضاع مزرية من التخلف . ومن هذه الوجهة، الا يمكن أن نربط بين العلاقة الجنسية وبين غيرها من العلاقات الاجتماعية الاخرى ، لنقول فى النهاية ان القمع الذى يطبع العلاقة الجنسية ليس الا امتدادا لأشكال القمع الاخرى التى يعرفها المجتمع ، اذ (أن حياة البشر الجنسية ، الصغيرة ، البائسة ، التى يزعم أنها متجردة من الصفة السياسية ، يجب أن تستكشف وأن تتم السيطرة عليها جوهريا من خلال صلتها بالمسائل التى يطرحها المجتمع الطبقى) (1) .

دعونا نفرق مبدئيا بين ذلك القمع الطبيعى الحاصل من التعارض بين مبدأ اللذة ومبدأ الواقع ، وبين ذلك القمع الحاصل من تدخل المؤسسات الاجتماعية لتوجيه الغريزة نحو اتجاه يضمن استمرارها ويساهم فى بقائها ، وهو ما أطلق عليه (ماركيوز) اسم (القمع الاضافى) تميزا له عما سماه (بالقمع الاساسى) الذى يشكل (الحدود الضرورية للغرائز كى يستمر الجنس البشرى. انه الاساس الطبيعى المنظم للعلاقات الجنسية بين الناس ... أما القمع الاضافى فهو قيود اجتماعية تضاف الى هذه الحدود الضرورية الطبيعية وتفرضها أشكال السيطرة الاجتماعة ونظمها

ومصالحها عبر التاريخ) (2)• ولما كانت الانظمة مختلفة والمصالح متضاربة ، كان من الطبيعي ايضا ان يختلف ذلك التدخل الموجه من عصر الى عصر ومن نظام الى نظام ، ومن هنا ندرك أختلاف القمع الجنسى فى الدول الغربية الراسمالية ، عنه فى المجتمعات المتخلفة • ففى حين يصبح الجنس فى النظام الراسمالى (عنصـــرا من عنـــاصر السوق الراسمـــالية ، واداة من ادوات الترويـــج والتنشيط والمتاجرة فى هذه السوق • ولا شك ان النظـــــــام الراسمالى يسعى لاستيعابه وتوجيهه دعما لاستقراره) (3) ، يتخذ فى المجتمعات المتخلفة ــ العربية على الخصوص ــ شكـــل ((الطابو)) المحـــرم الذى يساهم مع أشكال المحرمات الاخـــرى فى تثبيت الاوضاع القائمة واعطائها نفسا جديدا للاستمرار ، ومن ثم فان مشكلة الجنس لن تعرف حتها الصحيح الا فى أطار تحرير اجتماعى عام نختفى فيه كثير من المشاكل الجنسية التى تعود فى الاساس الى فساد فى البنيات الاجتماعيـــة •

ومن هذا الحين يصبح المقصود عندنا بالقمع الجنســى ، القمع الذى تفرضه المؤسسات وتوجهه لصالحها • وسنحـــاول قدر الامكان ــ وحسب المجموعة ــ ، ان نربط ذلك القمـــع باشكال القمع الاخرى التى تعانى منها الذات عند التأزى لتنتهى فى الاخير الى أن الجنس ليس غير عنصر من العناصر المكونـــة للازمـــة فى المجموعـــة •

1 ــ الجس والكبت الجنسى : ــ اننا لكى نفهم ازمـــة الجنس فى المجموعة علينا ان نستحضر ــ ولو مؤقتا ــ الجـــو العام الذى تدور حوله القصص ، وهو جو يطبعه الانتكـــاس والتأزم الذى يحيط بالذات سياجا منيما فتبدو داخله محاصره تجتر الذكريات وتلوك الاحلام حينما يستحيل التواصل مـــع

العالم الخارجي . وإنما كانت المجموعة في عمومها تكتسي طابعا نفسيا لتعبيرها عن الذات ، كان من العادى ان يطرح الجنس كبعد له دوره الكبير في الكشف عن الابعاد النفسية الاخرى، فهو بقدرما يكشف عن نفسه يكشف عن هموم الذات ككل . هكذا يغيب الجنس كنشاط حيوى ليحل محله الاحباط المتراكم على الذات فتبدو مثقلة بالكبت :

(قالت لـه بمـزاح : —

— في عينيك الكبت

وظهـر عليـه القلـق : —

— في عيني الانسـان) (4)

غير أن هذا الكبت سرعان ما تطفو مظاهره على السطح بفعل منبهات العالم الخارجي ، فتبدو الرغبة الجنسية جاثمة على الذات تطالب بالحاح تحققها السوى . (وجاءت بنات يرتدين الملابس القصيرة . وبالرغم من حالة الشبق التى حوله لم يعد ممكننا أن نانتبـم تشوق جسده ، مادام محتاجا الى شيء غير الاكل والشرب ، اكتشفه في وقت هبوطه على الدرج ، بدا ينكمش متناسوه) (5). وبالرغم من هذا الاحباط فان الذات عندما لم يسعفها الواقع في تحقيق رغباتها — بالطريقة السوية، لجأت الى الشذوذ كمواجهة مضادة للعالم الخارجي ، فاصبحت المرأة الغائبة حاضرة في الاشياء التى تثير الغريزة وتوقظهـا (هاته الدراجة صارت فرسا ، يلجمها المقود ، وهو يحتك بها لدرجة أن تتحرك رغبته ، الفرس مؤخرتها كمجيزة امرأة لاتخاف، مد وجزر الى ان يحصل الفيضـان) (6) .

وهكذا يصبح الشذوذ الوسيلة الوحيدة للانسجام مع العالم والمحافظة على التوازن الشخصى ، فالحرمان من الجنس

يقابله التماس الجنس بطرق ملتوية شاذة . فبطل «احلام الشفق الإسود » مثلا عندما فشل فى الحصول على المرأة ، عوضهـا بتمثال امرأة مصنوعة من الجبص ، بحيث اصبح التمثال بيـن يديه كتمثل (جالاتيا) وأصبح هو (بيجماليون) الهائم بجمـال تمثاله . (لاتسىء أصبح امرأة مصنوعة من الجبص متجمـدة الذراع فى الهواء . تألفها التشداه وقسم من الأنف . ورآها تحرك ذراعها وتحوطه . تعانقا . التصق بجسدها، وبدا صدرهـا تحت لباس التحرير المعروض . تحسسته يده الكبيـرة . المـد والجزر الى انه يحصل الفيضـان) (7) .

ان الاخفاق فى الحصول على المراة يوازى الاخفاق علـى المستوى الاجتماعى بالنسبة للبطل ، اذ الاول نتيجة للثانى ، وهما معا يوجدان شخصية مريضة شاذة ، يبدو شذوذها حتى فى تلك الحالات التى يقع فيها التواصل مع المراة ، لان الدافـع لهذا التواصل يكون فى الواقع هروبا من جحيم الواقع . (فالخمار) كان (يخلد اليهن بعد أن يطمئن الى أن الرصاص ونثار القنابل قد ابقيا على راسه فى مكانه) (8) ، وبهذا نستطيع تفسير ذلـك السلوك العدوانى الذى ينتابه بمجرد قضاء غرضه من المـرأة. (والمرأة الجميلة التى قبل يدها فى أول لقاء ، ثم قادها الى اطيـل طيقال ، فاصبحت تلذنه فى أن يصفع قفاها) (9) لأن المرأة هنـا، ليست غير وسيلة لتزجية الفراغ (اقتنص فتاة وأمارس وحشتى حتى أسمع الطنين الحقيقى وأبقى مع ذلك مظلوما) (10) تحضـر حينما تحضر الرغبة الجنسية وتغيب بغيابها . المرأة ــ الانسان تكاد تنعدم فى قصص التازى لتعوض بامرأة تكشف عن ازمـة الرجل عن طريق تعذيبها له ، أو تعذيبه لها . ومعنى هذا ان العلاقة السوية بين الرجل والمرأة منعدمة تماما . أن التازى لم يربط بين أزمة الرجل وأزمة المرأة فى نسق واحد يعود الى أزمـة

المجتمع ، وانما فصل بينهما ليعود الى الجمع بينهما بربـــاط تقليدى ضعيف (العلاقات المحبطة) . ولهذا جاءت هذه القصص خالية من النفس الاجتماعى ، مغرقة فى الذاتية التى تحول لديها الجنس الى شذوذ يصعب على القارىء ان يتلمس ذلك الخيـط الذى يصله بالواقع ، الشىء الذى جعل الجنس فى تلك القصص يبقى حبيس العلاقة المحبطة بين الرجل والمرأة دون ان يرقـى الى مستوى الرمز كما سنرى فى بعض القصص القادمة .

2 — الجنس .. والحرية : — ان الخيط الذى انفلت من يد الكاتب فى القصص السابقة امسك به فى هـــذه القصـــص ، فاصبح يصل الجنس كعلاقة بين المرأة والرجل بالجنس/الرمز الذى يتعدى المفهوم العادى ليطرح مفهوما آخر جديدا لاصلة لـه بالجنس الا من حيث كونهما ينبعان معا من الذات ، ولذلك فهما يتكاملان ، يعنى أحدهما الآخر ، ومن هنا وجب تلقيهما بهـذه التكاملية . ولكن ما هو المفهوم الجديد الذى خطا اليه الجنـس هنا ؟ انه الحرية . واذا شئنا الدقة قلنا انه قمع الحريـة ، فحيثما يقمع الجنس تقمع الحرية ، ويكون مصدر القمع واحـدا هو المؤسسة الاجتماعية التى تظهر بمظاهر متعددة : من دين الى عادات وتقاليد ، الى سلطة سياسيـة .

فى قصة ((امتدادات عن صورة النهر الحجر)) أشرنا الـى الراس المقطوع الذى رأينا أنه يرمز الى فكر ثورى مضطهـد*. وقد ارتبطت بتلك الصورة المأساوية صورة أخرى تضيف الـى قمع الفكر قمعا جنسيا ، فغدا القمع الفكرى مرتبطا بالقمـع الجنسى (من بطن النهر تتهيج حيواناته الدقيقة وتنغل تحـت ارتفاع الدم ، وفى داخل تهيجها ظهر له رجل مقطوع الراس ، وفى اعلى رقبته سدت الشرايين بطبقة من القار ... جهـده الجسدى يقترب من امرأة عارية تتكلم ، لاتنثنى . لا تتحـرك.

يمشى ببطء شديد ليقترب منها ، وانتصاب ظاهر فى عضل نبت فى وسطه . لم يقل شيئا . لان لسانه كان مقطوعا مع راسه المقطوع) (11) فرغم توفر العناصر التى تكون لوحة جنسية كاملة ، فاننا لا نستطيع أن نرد الصورة الى الجنس وحده ، مادام يتمسك بمضمون آخر هو الحرية التى ينكشف قمعها بمشهد القمع الجنسى :

(قوس ظهره واخذ يترنح مشيرا الى مكان ما من جسده
ـ انظرى

تصوره يبكى بعيونه المخلوعة مع راسه المقطوع ، وكان احد الحواجز يقول له :

ـ ذلك يحدث فى الليل ، والوقت ليس ليلا لا يسمع ويظل يتالم . حاجزا آخر يقول له :

ـ حائض

لا يفهم ، ويبدو فى ترنحه كانه سيسقط ، وقال احد الحواجز الاخرى :

ـ حرام) (12) .

ولهذا يصبح مفهوم تلك الحواجز يتعدى كونه مجموعة من العوائق التى تحول دون تحقيق الرغبة الجنسية الى حواجز تحول دون ممارسة الحرية بمفهومها العام . ولا تقف الحرية الجنسية من ذلك المفهوم الا من جانب يلقى عليه الضوء ، ويعطيه دلالة فى النفس .

واذا كانت تلك الحواجز قد التقى فيها التحريم (الدين) بالعادات الاجتماعية ، فاننا نجد فى قصة ((الثقب)) حاجزا سلطويا تمثله رجل الشرطة الذى وقف بالمصاد لاحد الغرباء ،

يتتبع خطواته (عندما يدخل المدينة أحد الغرباء يحس فيهم مهربين ودساسين ورجال مؤامرات . وسرعان ما يتصل من مخدع التلفون باللاسلكي ، فتنطلق سيارة اللاسلكي لتحوم أى حوم لتعطى ملاحظات مفصلة حول تحرك الرجال) (13) .

وعبر هذه المراقبة تصادر حرية الرجل وتقمع غريزته الجنسية التى اثارتها فتاة تتجول فى الشارع (نسى كل شىء وذهب وراء فتاة صغيرة تلبس «الميني» . قطع الطريق الى الجهة الاخرى . اقترب منها . سبقها . فرأى شرطى المرور ينظر اليه . تردد . توقف . كان الشرطى ينظر اليه . يرى فيه أحد القادمين من الغرب) (14). وهكذا تضيع الفتاة / الغريزة بضياع الحرية التى خنقتها مراقبة الشرطى . (ضاعت البنت الصغيرة وظل يحس تدرجا نحو شىء ما . اختفت فى طريق جانبى فى تلافيف الشارع ... وضع الشرطى يديه حول خاصرته من الخلف . كان يركز حول ذلك الرجل الغريب ذى الحذاء الكلوتشو ، الموحل بتراب الغرب . ولم تعد تلك الفتاة الصغيرة تظهر) (15) .

ونعود مرة ثانية لنلتقى بالجنس فى قصة «أحلام الشفق الاسود» لكن من زاوية غير الزاوية التى رصدناها فى بداية الموضوع، انها ظاهرة العهارة التى تطفو على سطح المجتمع المغربى بفعل عوامل اقتصادية واجتماعية تدفع فئة من النساء لامتهان «العهارة» كوسيلة لضمان العيش . ولما كان المجتمع عاجزا عن حل هذه المعضلة فقد لجأ الى القمع كوسيلة لاخفائها . والقصة تبين ذلك التعارض القائم بين العاهرة التى لا تجد حريتها الا فى ممارسة عملها ، وبين المجتمع الذى يحارب حريتها ضمانا لستر فضائحه (غمزت له امرأة ... أشارت له ان يتبعها ... واقتربت منه الفتاة الغمازة حتى صار نهداها فى

مستوى كتفه . ذراعاه السمراوان تمتدان ليداعب عنقها ... يدخل غاضبا ذلك الشاب الذى يحمل ملامح الرجل المسن ويرفع سبابته وابهام يده اليمنى ، ايد اليمنى كان بطنها يخنق صراخ الفتاة الغمزة ، والازردة تقاوم ، ويد الشاب تضغط ... يد عزرائيل بدأت تتضخم وعنقها أصبح فى حجم قنوات المياه) (16). وهكذا تنتهى حياة العاهرة وتنتهى معها حكمتها التى تجسدت فى شكل (فعل ارادت أن تقول به أن العالم كله دعارة . فاختنق صوتها بيد الشاب يصنع هو الآخر حكمته) (17) .

ومن خلال تلك الصور الجنسية نستطيع أن نكون فكـرة عامة عن الجنس فى مجموعة التازى ، يمكن حصرها فى النقـط الآتيـة :

1 ــ الجنس فى المجموعة لا يطرح كموضوع أساسى ، وانما هو لقطات تتفرق فى المجموعة . ويتفاوت حظ القصص منـه من قصـة الى أخـرى .

2 ــ تتجمع تلك اللقطات لتكون صورة واضحة عن ازمـة الفرد الذى يضيع منه كل شىء ، حتى الجنس الذى هو ضرورة بيولوجية ، فيعيش قمعا مزدوجا : قمع خارجى يعيشه علـى المستوى الحياتى الاجتماعى ، وقمع آخر داخلى ينبع من ذاتـه حينما تحبط الغريزة الجنسية من الخارج . غير أن مصدر هذا القمع يبقى واحدا فى كلتا الحالتين .

تتبلور أزمة الجنس فى بعض الاحيان فى شكل رموز تتجاوز الجنس لتطرح شيئا آخر أهم من الجنس هو الحرية ، فيصبـح قمع الجنس مرتبطا بقمع الحرية . ويتراوح طرح الحرية بهذا المفهوم بين طرح جديد عميق كما فى «امتدادات عن صورة النهر الحجر» وقصة «الثقب» وبين طرح آخر تقليدى هو موضـوع «المومس» كما فى قصة «أحلام الشفق الاسـود».

هوامش :

(1) ــ وليام رايخ / والنص مأخوذ من كتاب « المرأة الاشتراكية » . تأليف : المجموعة «ت» جورج طرابيشى ــ ط2 ــ 1973 ــ صفحة 172 . دار الاداب .

(2) ــ محمود أمين العالم : ماركيوز أو فلسفة الطريق المسدود . ط1 1972 . صفحة 132 . أيضا الحب والحضارة لماركيوز ــ الترجمة العربية ص 71 ــ 72 .

(3) ــ محمود أمين العالم فى المرجع السابق . ص : 142 ــ 143 .

(4) ــ فراغيات فى وضع مطلوب ص 108 .

(5) ، (6) شروخ فى الجسد ص 51 ، 54

(7) ــ احلام الشفق الاسود ص 141 .

(8) ، (9) ــ اشياء العالم ص 125 ، 122 .

(10) ــ الجاذبية الثالثة ص 171 .

* قراءة نقدية فى مجموعة أوصال الشجر المتطوعة ــ المحرر الثقافى 4 ــ 5 يونيو 1978 .

(11) ، (12) ــ امتدادات عن صورة النهر الحجر ص 40 ــ 41 .

(13) ، (14) ، (15) ــ الثقب ص 31 ــ 32 .

الاداة التصورية لنظرية الاستلاب الماركسية (*)

ادم شــــاف
ترجمة : الداموون مصطفى

بوضعنا ضرورة تحليل الأداة التصورية لنظرية الاستلاب الماركسية كمسلمة ، يلزمنا ان نبدأ بتفسيرات توضح هذه المسلمة العامة ، ولكن غامضة . اعتباران يمليان علينا هذه التفسيرات. الاول هو ان نظرية الاستلاب الماركسية قد تطورت عبر التاريخ، واذن ينبغي تحديد باية اداة تصورية يتعلق الامر ، هل يتعلـــق الامر باداة تصورية صالحة لمرحلة واحدة أم ، احتمالا ، لكـــل المراحل . الاعتبار الثاني هو أننا اذ نتكلم عن ((الأداة التصورية)) لنظرية الاستلاب يمكن أن نفهم هذه العبارة بمعنى ضيـــق أو واسع ، بمعنى ان نقتصر على الاداة التصورية المتعلقة بتعريف الاستلاب فقط ، او ناخذ بعين الاعتبار بمفاهيم ذات علاقـــة بنظرية الاستلاب أيضا ، وضرورية لفهمها ، وان كانت هـــذه

(*) يشكل هذا المقال فصلا من كتاب بعنوان المقال السابق (أقلام : 4) ويعده حاليا للنشر مترجم النص عن البولونية (المترجم)

المفاهيم لا تشكل جزءا من تعريف الاستلاب بحصر المعنى . اجيب عن هذين التسؤالين .

اولا : عندما أتكلم عن الأداة التصورية لنظرية الاستلاب الماركسية ، يكون نصب عيني ثمة مفاهيم يمكن تعميمها كثوابت من مختلف مراحل تطور نظرية الاستلاب ، وذلك بمعزل عن التغييرات التي لحقت بهذه النظرية في مختلف المراحل . وهكذا، اذن ، نبعد هنا الفروق وخصوصية المفاهيم المحللة على ضوء تغيرتها التاريخية في مؤلفات ماركس . فما يهمنا ، بالعكس من ذلك ، هو ما يدمج هذه المفاهيم في كل واحد ، هو ما يسمح باتصالية الفكر الماركسي . ولكن ، بما ان كل تعميم يقضي بوجود معيار للاختيار ، فاننا هنا سنطبق نفس المنهج الذي استخدمناه في تحليلنا للتطور التاريخي لنظرية الاستلاب في أعمال ماركس : فما يتحكم في قرارنا هو نقطة النهاية ، وأعني بها ما يلي : ان ما احتفظ بوجوده في أعمال النضوج يشهد على حيوية العنصر الأول للنظرية ، ويشكل نقطة ارتكاز هذا التعميم الذي ننوي القيام به . وبعبارة أخرى : نعمل على ابراز الاتصالية في تطور نظرية الاستلاب بانطلاقنا من النتائج ، بحثنا عن مقدمات هذه الآخيرة في اعمال ماركس السابقة .

ثانيا : اننا نفهم عبارة «الأداة التصورية لنظرية الاستلاب الماركسية» بمعنى واسع ، اى اننا لن نقتصر على التعريف وحده ، انما سنرجع ايضا الى المفاهيم المرتبطة به ، تلك التي بدونها — في رأيي — يكون من المستحيل صياغة وفهم التعريف، وبناء على ذلك ، فان نظرية الاستلاب ، طبقا لوجهة النظر هذه، لا تقف عند مشكلة الاستلاب فحسب ، وانما هي تشمل في ذاتها على عناصر ذات علاقة بمشكلة التموضع ، والتشيؤ ، وفتيشية السلعة ... الخ .

ما هى مقولات نظرية الاستلاب الماركسية — بمعنى واسع — التى ستشكل موضوع تحليلنا ؟

انها فى عداد ثلاث :

أ) الاستلاب واستلاب الذات ؟

ب) التشيؤ .

ج) فتيشية السلعة .

سنقوم بتحليل كل واحدة من هذه المقولات على حدة ، وفى كل مرة ، سنحدد المشكلات الرئيسية التى ستشكل موضوع تحيلنا . وهذا العمل التمهيدى ، الذى لا يخلو من ادعاء المعرفة بعض الشىء له ما يبرره : انه يرمى الى تحديد الاداة التصورية التى ستكون لنا اساسا فى اعتباراتنا اللاحقة حول أشكالية الاستلاب المعاصرة . اذن ، فالامر يتعلق باداة تستحق أن تكون مشحوذة ، والتى تستخدم بالتزام كل الاحترازات الممكنة ، لكى يتم تلافى الخلافات والاخطار المتأتية عن الكلمات الغامضة التى تستخدم فى التحليلات .

أ — الاستلاب واستلاب الذات

سنعرض اذن لهذه اللحظة المركزية من التحليل ، وذلك بتفصيلنا للمشكلات التى تقتضى — فى رأيى — التفسير والصياغة بدقة فى نهاية هذا العمل ، وهى كما يلى :

1 — تعريف لفظة ((استلاب)) ؟

2 — المفهوم والعلاقة المشتركة بين الكلمات الالمانية المستخدمة فى أعمال ماركس ← Entfremdung

*Veräusserung, Entäussrung ←

(*) أترك هذه الكلمات الالمانية كما هى نظرا لما تنطوى عليه من فروق سيمية دقيقة فيما بينها سيعرض لها الكاتب بعد قليل (المترجم).

3 ــ الاستلاب والطابع العفوى للتطور الاجتماعى ،

4 ــ العلاقة المشتركة بين «الاستلاب» و «التموضـــع» ، الطابـــع التاريخـــى للاستـــلاب ،

5 ــ تعريف لفظـــة «استـــلاب ــ الذات» ،

6 ــ العلاقة بين الاستـــلاب واستلاب ــ الذات ،

7 ــ الاستلاب وعملية القضـــاء عليـــه .

1 ــ لنبدأ بملاحظة ذات أهمية قصوى ، نظراً للخلـــــط التصورى السائد بهذا الصدد فى الأدب المعاصـــر ، وان كانـــت ملاحظة مبتذلة بالنسبة لمن هو على معرفة بالمركسية : لقد ميـــز ماركس فى كل كتاباته ــ ابتداء بكتابات شبابه وانتهاء بأعمال النضج ــ بين مفهومين : «الاستلاب» و «استلاب الـــذات» ، وكل واحدة من هذه الكلمات الخاصة يدل على علاقات اجتماعية مرتبطة فيما بينها ، ولكنها ــ مع ذلك ــ مختلفة . ففى الحالـــة الأولى ، يتعلق الأمر بعلاقة قائمة بين الانسان وبين آثـــار فاعليته الانتاجية (تلك التى تشمل ، بالمعنى الواسع لهذه الكلمة، لا المنتجـــات المادية فحسب ، وانما أيضا المنتوجات الروحيـــة مثل المؤسسات الاجتماعية ... الخ.)» وفى الحالة الثانيـــة ، يكون المقصود هو العلاقة القائمـــة ما بين الانسان من جهـــة والناس الآخرين وذاته من جهـــة أخرى .

يلزمنـــا أن نشـــرح لماذا نتحـــدث هنا عن علاقـــة ولماذا نصفهـــا بأنهـــا اجتماعيـــة .

«الاستلاب» يدل ، اذن ، على علاقة محددة ، هى تلك التى تقوم ما بين الانسان ومنتوجات فاعليته . سنقول فيما بعد على ماذا يقوم جوهر هذه العلاقة . اما الآن ، فانى ألح على ان اشير

الى ان الامر يتعلق بعلاقة مماثلة لعلاقة الادراك من جهة بنيتها، وان كان طابعها شيئا آخر : فهذه العلاقة تربط دوما الانسان والشيء الذى يتعلق به هذا ((الاستلاب)) . انها علاقة ذات طرفين : الانسان ــ الواقع الذى صنعه الانسان ، والاستلاب يقوم على عزل خاص لهذين الطرفين اللذين يعارض الواحد منهما الآخر . ومع ذلك ، وبمقتضى المفهوم الماركسى ، فان الذى يتحمل هذا ((العزل)) ، اى الذات الخاصة فى هذه العلاقة ، ليس الانسان فقط ، انه يمكن أن يكون الطرف الثانى فى العلاقة ــ الواقع الذى هو نتاج الانسان .

ولكن الانسان هو دوما حاضر فى هذه العلاقة ، وما يجرى فيها يتعلق به . وفى هذا النطاق ، يكون اولئك الذين يبرزون مكانة الانسان فى علاقة الاستلاب على صدق .

ان الفارق بين الاستلاب واستلاب الذات يقوم على ما الذى يستلب : الانسان أو منتوجاته أيضا . نكون بازاء الاستلاب حينما تكون منتجات الانسان هى التى تستلب بالنسبة الى صانعيها ، ونتكلم ، فى مقابل ذلك ، عن استلاب الذات حينما يكون الانسان هو الذى يستلب بالنسبة الى المجتمع ، بالنسبة الى الناس الآخرين اذن ، او بالنسبة الى ذاته نفسها . فى حالة الاستلاب ، نكون امام علاقة موضوعية بمقدار ما تكون منتجات العمل الانسانى ، اى موضوعات محددة (بالمعنى الواسع لكلمة ((موضوع))) ، هى التى تستلب ، أياما كان تفكير الانسان حولها، ومهما كانت الكيفية التى يعيش بها هذه الواقعة، ... الخ . وفى حالة استلاب الذات، توجد هناك علاقة ذاتية، كلما كان الانسان هو الذى يستلب بالنسبة الى ((أنا)) الخاص ، وهذا الاستلاب يتشكل من احاسيس ، وتجارب معاشة ، ومواقف للانسان ، اى من ردود فعل ذاتية ، حتى وان كانت

هذه الاخيرة مشروطية اجتماعيا (بالمعنى الواسع لكلمــــة مشروطة ، المأخوذ فى مظاهره المتعددة)• ولكن فى كلتا الحالتين، يتعلق الأمر بعلاقة خاصة ، الانسان ــ الواقع الذى انتجه•

نقول عن هذه العلاقة بانها اجتماعية، لأن «الانسان» الذى يبدو دوما كطــرف فى علاقة الاستلاب هو فرد اجتماعى بالمعنى الذى أعطاه ماركس لهذه العبارة ، بمعنى أنه نتاج المجتمع ، ويعمل ــ فى حالة علاقة الاستلاب أيضا ــ فى أطار المجتمــع والآليــات التى تتحكــم بــه •

نستطيــع الآن أن ننتقــل الى صياغة التعريف الخاصة والــى تفسيــرهــا •

ماذا تعنى كلمة «استلاب» لدى ماركس ؟ فى كل مراحــل أعمال ماركس (فى المخطوطات ، الأيديولوجيــة الألمانيــة ، الأسس ••• ، رأس المال) ، تعنى كلمة «استلاب» ــ كما يمكن أن تؤكد ذلك كثير من الاستشهادات ــ العلاقة بين الانســان ومختلف منتوجاته ، تلك العلاقة التى تقوم على ما يلى :

أ) يصنع الانسان موضوعات ، افكارا ، مؤسسات ، الخ• بهدف اشباع بعض الحاجيات الاجتماعية ، وسعيا نحو بلــوغ اهــداف محــددة ،

ب) ومع ذلك ، فهذه المنتوجات الانسانية المختلفة تعمــل فى سياق اجتماعى محدد ، وتخضع لتاثير القوانين المتحكمة فــى ذلك السياق ، ذلك التاثير الذى لا يخضع ، فى الغالب ، لارادة الانسان• وهذا الاستقلال المتعلق بعمل المنتوجات بالنسبة الى الاهداف المتوخاة منها من طرف صانعيها يصبح عنصرا من عناصر عفويــة التطــور الاجتماعــى •

ج) ونتيجة لهذه الواقفة ، تتحول منتوجات الانسان ، فى اطار علاقة الاستلاب ، الى قوة غريبة عن الانسان ، قوة تعارض ارادته ، تحيل مشروعاته الى عدم ، تهدده حتى فى وجوده ، وتسيطر عليه .

ان هذا الفهم لكلمة «استلاب» لا تربطه اية رابطة مشتركة مع المفهوم الذى انتشر قبل الحرب ، ولكن بعدها على الخصوص، وذلك بواسطة الوجودية والفنون الجميلة . فالانسان المستلب، كما يقدمه لنا كامى فى الغريب ، وج.ب. سارتر فى الغثيان ، او كما تقدمه لنا كل اعمال كافكا ، يعكس حقا ظاهرة ذات اهمية قصوى فى الحياة المعاصرة . ولكن مطابقة هذه الظاهرة مع الاستلاب عامة يعنى ارتكاب خطأ لغوى قائم ، وذلك بادخال معنى كلمة الاستلاب فى مفهومه الذتى، اى بوضع ان الاستلاب يعنى دوما «استلاب الذات» . ومثل هذه المحاولات قام بها حتى بعض الكتاب الذين يعتبرون انفسهم كماركسيين . ان هذا سبب آخر يضاف لكى يكون الخلط كبيرا فى ذهن القراء الذين يعرضون لاشكالية الاستلاب من خلال الادب الروائى ذى الاتجاه الفلسفى. فبالنسبة لهؤلاء ، الاستلاب دوما هو استلاب الانسان بالنسبة الى العالم والمجتمع . نحن نعرف من تاريخ المشكلة ان هذا خطأ. وبالتاكيد نقول ان خطأ فيما يخص نظرية الاستلاب الماركسية . فبالنسبة الى ماركس — وهذا منذ مخطوطات شبابه — ، «الاستلاب» يعنى قبل كل شىء ، علاقة موضوعية تستلب فيها منتوجات الانسان — منتوجاته هى فى الاختلاف بحيث تضم الدين، الأيديولوجيا ، الدولة ، السلعة ، ... الخ — بالنسبة الى الانسان ، بمعنى انها تفلت من مراقبته ، وتصبح قوات مستقلة، غريبة ، ومعادية تعارضه . تلك هى الدلالة الرئيسية لكلمة «استلاب» ، كما كان يفهمها ماركس .

2 — بقي أن نشرح نقطة ثانوية ، ذات علاقة باللغة ، ولكن لها أهميتها فيما يخص فهم نظرية الاستلاب الماركسية ، لان هذه النقطة ، من بين نقاط اخرى ، تشكل منشا الصعوبات التى نصادفها اثناء ترجمة نصوص ماركس المختلفة . يستخدم ماركس ثلاث كلمات بالالمانية ، ذات دلالة متقاربة :

Veräusserung, Entäusserung, Entfremdugn

فهل يستخدم ماركس هذه الكلمات كمترادفات ، متناسيا الفروق السيمية* المرتبطة بهذه الكلمات فى تاريخ المشكلة ، تلك الفروق التى كان هيجل ياخذها بعين الاعتبار ؟ هل يمكن — كما يفعل البعض — ان نتكلم عن نظرية الـ Entäusserung — Entfremdung فقط ؟

ان المسألة ليست بهذه السهولة ، على الاقل فيما يخص اعمال ماركس فى شبابه . بل وحتى فيما بعد ، فى الفترة التى استخدم فيها ماركس — مبدئيا — هاتين الكلمتين بمعنى مختلف، عندما كان يضع الواحدة منهما الى جانب الاخرى فارقا بينهما بواسطة فاصلة ، يمكن ان نتساءل ما اذا كان يستخدمهما كمترادفين ، أو انه كان يريد ، باستغلاله للفروق القائمة فى مفهوميهما ، توسيع المحتويات التى تنقلها لنا هاتان الكلمتان .

ان هذه الفروق السيمية ، التى لا يمكن ان ننتبه اليها فى اللغات الأخرى الا بواسطة الوصف ، لانعدام الكلمات الملائمة ، هى فروق تقوم على الأصل اللغوى مثلما تقوم على اقتران هذه الكلمات بمختلف أصولها النظرية (الميتافزيقية — اللاهوتية بالنسبة لواحد ، ونظرية القانون الطبيعى والعقد الاجتماعى بالنسبة لآخر). فكلمة Entfremdung تلح على

(*) نسبة الى La sémantique وهى ، بابسط تعريف ، دراسة اللغة من حيث المعنى (المترجم) .

فكرة الغربة اكثر ، على حين ترتبط كلمة Veräusserung شأنها شأن كلمة Entäusserung — بتقاليد الفكر القانونى فى القرن السابع عشر ، وهى تعنى بالالمانية « نقل ملكية شيء الى شخص آخر» ، «باع» ، وتقابل بالضبط المفهوم القانونى لكلمه «استلاب» تبعا للتقليد الروماني . ولكى نتلافى كل سوء تفاهم ، هنك ما يدعو الى ان نتذكر ان ماركس لم يستخدم كلمه «استلاب» فى هذا السياق ، وان هذه الكلمة قد ادخلتها الوجودية الفرنسية كمقابل لكلمة Entfremdung : لقد ساهمت الوجودية الفرنسية ، التى لا جدال فيما لها من فضل فى احياء نظرية الاستلاب ، فى خلق الخلط التصورى السائد حاليا فى هذا الميدان مساهمة واسعة : فاولا ، عملت على رد مشكلة الاستلاب الى مشكلة استلاب الذات ، وبذلك تكون قد اسست التفسير الذاتى للمسالة، خلافا للتقليد الماركسى الذى تستقى منه الوجودية بالتاكيد ، ولكنها لا تفهمه ، وثانيا ، لانها ، بادخالها لكلام تصورى غامض ، تعمل، بمقتضى مبدأ «تأثير الكلمات» الذى تقول به مدرسة السيمية العامة ، لا على التكوين فحسب ، وانما ، أيضا على تشويه الدائرة السيمية للمفاهيم . وهكذا، فلكى تترجم كلمة Entfremdung ، تستخدم كلمة « استلاب » التى تقابل فى الواقع كلمة Veräusserung . وبعض الفلاسفة الفرنسيين يترجمون كلمة Entäusserung . بـ «extra-néation» (لفظة جديدة من ابتكار هيبوليت) ، وهذا خطأ ، أو بكلمة «extériorisation»* وهذا أكثر أمعانا فى الخطأ ،سيما وأن كلمة تخارج تلعب دورا خاصا فى الاداة التصورية لفلسفة هيجل . واذن ، فنحن نرى أن هناك أسبابا اضافية — تتفق مع

(*) لم أحاول البحث عن ترجمة هذه الكلمة الى العربية لانها خطأ (المترجم)

المثل القائل ((احفظنا ، يا الهى ، من اصدقائنا)) ــ تحفزنا على السهر من أجل انصواء اللغوى للعبارات المستخدمة فى هذا المجال.

لنعد ، مع ذلك ، الى تحليلنا . لقد قمنا بهذه التمييزات السيمية ، لا من اجل الابقاء عليها فى نظرية الاستلاب الماركسية، وانما بهدف تحرى دقة كبيرة ، وفهم جيد لنصوص ماركس . فهذه التمييزات لدى ماركس تكافىء بقايا الاصول النظرية التى تستقى منها نظرية الاستلاب . لقد كن لها أيضا دورا هاما لعبته فى أعمال شباب ماركس ، ولكنها فيما بعد ، ستفقد دلالتها النظرية ، ولم يعد لها من فعل سوى تقديم الصورة . وفضلا عن ذلك، فاننا لا نتوفر ، فى غالبية اللغات الاخرى ، على كل هذه الدقة والفروق السيمية الدقيقة التى تملكها الالمانية ، ثم ان مختلف التعبيرات لا تملك نفس التقاليد . نسلم ، اذن ، بان تترجم كلمة Entfremdung بكلمة ((استلاب)) ، مع اعطاء هذه الاخيرة الفروق السيمية الدقيقة التى كانت موضع اهتمامنا ــ باختصار ــ فيما تقدم ، تلك الفروق التى يمكن لنا ، كلما اقتضى الامر ذلك ، ان نستخلصها عن طريق الوصف أو السياق .

3 ــ أثناء تعريفنا لمفهوم الاستلاب فيما تقدم ، ذكرنا علاقة الاستلاب بعفوية التطور الاجتماعى . وبما ان هذه المشكلة ــ فى رأيى ــ ذات أهمية قصوى ، وغالبا ما يضرب عنها صفحا، فانى أود هنا أن أخصص لها بعض الاهتمام .

اذا كان الاستلاب ، طبقا للتعريف المصاغ سلفا ، علاقة اجتماعية تقوم فى جوهرها على كون منتجات الفاعلية الانسانية تعمل ، فى ظل نظام اجتماعى معطى ، تبعا لحركة مستقلة تستعبد الانسان وتسيطر عليه ، فان التطور الاجتماعى سيكون

عفويا . وواضح اننا غالبا ما نستعمل ، رغبة فى وضـــوح الحديث ، تعبيرات مجازية او اصطلاحات تشخص قوى الطبيعة او طاقات اجتماعية . فمنتجات أو آثار الفاعلية الانسانيــة ــ السلع فى السوق ، المؤسسات الاجتماعية ، الايديولوجيات ، الدين ، العلم ... الخ ــ لا «تعمل» ، ليست «معادية» للانسان، لا «تفعل» بالمعنى المباشر المألوف لهذه الكلمــات . فالذيـــن يفعلون ، ويشيدون نظاما اجتماعيـــا معطى بقوانينه وآلياتـــه التى تعمل بحيث يفلت الانتاج من مراقبة المال ، ولا يصـــل الانسان الى الاهداف المبتغاة من فاعلية ، وبحيث يجرى التطور الاجتماعى بكيفية مخالفة لما كان يتمناه الانسان ، بل وحتى فى اتجاه مضاد للاهداف المتوخاة ، هم الناس وحدهم .

يمكن ان نتساءل عن معرفة من العلة ومن المعلول : هـل الاستلاب هو علة عفوية التطور الاجتماعى أو العكس هــو الصحيح ؟ ولكن سؤالا من شاكلة : «من الاول ، الدجاجــة او البيضـــة ؟» لا يملك ، عادة ، الا معنى شكليا الى اقصى حد. فالمعقول ، فى الواقع ، هو أن نفهم حركة سير العمليــــات الاجتماعية بمختلف مظاهرها ، وان نصوغ ، بكيفية واضحة ، المعارف المكتسبة على هذا النحو . على ان هذه المعارف ليست متنافسة فيما بينها ، وانما هى متكاملة . وفيما يخص موضوع المعرفة ، لا يتعلق الأمر فى هذا الصـــدد بظواهــر متباينــة ، وانما بالكيفيات المختلفة لفهم نفس الظاهـــرة .

نحن ، اذن ، امام عمليات اجتماعية يتجه فيها أفـــراد مختلفون او مجتمعات بأسرها نحو هدف محدد ، ويعملـــون للوصول الى هذا الهدف . ولكن نتـــاج عملهم ليـــس مطابقـــا لهدفهم ، بل هو على النقيض مما يتوخون بلوغه . وهكذا ، يقوم الناس بانتاج موضوعات يلزم أن تشبع حاجياتهم ، ولكنها ، فى

السوق الرأسمالية ، تعمل بوصفها سلعا ، وحينما تفجر أزمة زيادة الانتاج ، فان تلك الموضوعات لا تصل الى المستهلك ولاشباع حاجاته فقط ، وانما هي ايضا تسحق الافراد فى شكل بطالة ، وفقر ، ... الخ ، وذلك على نحو ما تفعل عناصر الطبيعة التي يطلقها الساحر ولا يعود يتوصل الى التحكم فيها. فالانسان يطور العلوم لكي ينمي معرفته بالعالم ووسائل السيطرة عليه ، ولكن هذه المعرفة ـ معرفة الطاقة النووية مثلا ـ ، في ظل شروط محددة لآلية المجتمع ، تعمل كعنصر طبيعي يهدد الانسانية في وجودها . يمكن أن نضاعف هذه الامثلة التوضيحية بالرجوع الى الايديولوجيات التي تبتكر اشكالا متعددة من التفتيش ، والى الدولة التي تسحق الانسان بجهازها البيروقراطي ... الخ . ففي كل هذه الحالات ، نحن امام الاستلاب والسير العفوي للتطور الاجتماعي ، بمعنى العلاقة الموضوعية التي كانت موضوع اهتمامنا فيما تقدم . ولكننا لا نفهم من ذلك أن الامر يتعلق بتعاقب في الزمن ، بعلاقته علة بمعلول حيث يشكل الاستلاب علة عفوية التطور او العكس بالعكس. امام معرض اعيننا هنا عمليات اجتماعية تكشف عن هاتين الظاهرتين في آن واحد ، واذن يمكن فهمهما انطلاقا من هاتين الوجهتين من النظر . فما يجرى عفويا في العملية الاجتماعية يشكل في نفس الوقت استلابا من نوع خاص ، والعكس صحيح. فما هو مستلب في العملية الاجتماعية ليس كذلك يفعل عفوية التطور الاجتماعي ، والعكس صحيح . ولكن يمكن الرجوع بهاتين الظاهرتين الى جذور مشتركة توجد في آلية اجتماعية معطاة . ومع ذلك ، فان فهم علاقتهما وتكامليتهما يسمح بالقاء نظرة جديدة على هاتين الظاهرتين وادراكهما على نحو احسن. وعلى كل حال ، وفيما يخص الاستلاب ، فان هذا يسمح لنا بان

نرى جيداً انه ، فى المنظور الماركسى ، لا يتعلق الامر فقط بالفرد الذى خابت آماله ، التعس ، المنهك ، الموجود فى حالة مرضية قصوى . ان الامر ليمس هنا الكيفية التى يتطور بها المجتمع . واذا ما فهم شخص ما الاستلاب على نحو مغاير ، فاننا ، بالتأكيد ، لا نستطيع أن نمنعه من ذلك ، ولكن المؤكد هو أن ذلك الشخص لا يشاطر المفهوم الماركسى للاستلاب، ولا يستخدم الكلمات المعطاة بمعناها الماركسى .

4 ــ ترجع نظرية الاستلاب الماركسية الى كلمة اخرى ايضا ، وهى Entfremdung ، او «التموضع». وقبل كل شىء يعرض ماركس لوجهة نظره حول علاقة التموضع والاستلاب Vergenständlchung, Entfremdung فى الاسس وبما ان هذه المسالة تكتسى اهمية بالغة لفهم احد جوانب نظرية الاستلاب الماركسية ، اى طابع الاستلاب المشروط تاريخيا ، فاننا سنتوقف عندها .

اذا كان التحارج يعادل المظهر السيكولوجى للانتقال من الفكر الانسانى الى تجليه فى عالم الفاعليات الانسانية الواقعية ونتائجها الموضوعية ، فان التموضع يشكل مظهرا آخر لنفس هذه الظاهرة ، او لادراكها المختلف ــ انطلاقا من النتائج الموضوعية ، على وجه الدقة ، (المقصود كل الموضوعات ، وليس فقط الاشياء ، وانما ايضا الاعمال الادبية مثلا) للفاعلية الانسانية الواعية ، أى المبنية على تفكير ينطوى على غاية . وبهذا المعنى، يكون التموضع ، وفق ماركس ، ظاهرة فوق ــ تاريخه ، عنصرا ضروريا لحياة الناس الاجتماعية . والامر خلاف لذلك فيما يتعلق بالاستلاب . فلكى نقوم علاقة استلاب منتوجات الفاعلية الانسانية ، يجب ان يحدث اولا التموضع ، ذاك الذى بدونه لا يمكن لهذه المنوجات ان توجد ، وهذا بصرف النظر عن طابع

التشكيلة الاجتماعية ، ولكن يجب ان تتوفر هناك شروط اخرى تعمل لكي يتحول منتوج الفاعلية الانسانية الى شكل قوة مستقلة تعارض الانسان وتسيطر عليه . وهذه الشروط شروط تاريخية ، بمعنى أنها تظهر فى مراحل تاريخية محددة ، وتختفى فى مراحل آخرى . ومن هنا كان الاستلاب ــ بعكس التموضع ــ ذا طابع تاريخى ، يرتبط بشروط اجتماعية محددة ، ويزول بزوالها . ان الاستلاب ــ بمعنى هذه العلاقة الموضوعية التى نتكلم عنها كل الوقت ــ ليس لصيقا بالوضع البشرى ، كما يؤكد ذلك الوجوديون وبعض المنظرين القائلين بالانتساب الى الماركسية . ان الاستلاب ظاهرة مشروطة اجتماعيا . ولهذا فان عملية القضاء عليه ممكنة بفضل تجاوز الشروط الاجتماعية التى تحدده . ومن وجهة نظر محددة ، وبشرط ان توضع المشاكل وضعا جيدا ، فان الاشتراكية تشكل برنامجا للنضال ضد الاستلاب ، والعمل على اقتلاعه من الحياة الاجتماعية (لنتذكر ان ماركس كان يعتبر رأس المال ، والعمل المأجور، والدولة ، ... الخ كاشكال من الاستلاب) .

5 ــ لقد كان ماركس يميز ، منذ المخطوطات ، وكما قلنا ذلك من قبل ، ما بين مفهوم الاستلاب ومفهوم استلاب الذات. لقد ظل هذا التمييز قائما لدى ماركس فيما بعد كذلك ، وان كان اهتمامه بالاشكالية الاقتصادية قد وجه انتباهه ، وبشكل رئيسى ، الى مشكلة الاستلاب بوضعه علاقة موضوعية . وبما اننا قد أولينا اهتمامنا لمفهوم ((الاستلاب)) ، لنعكف الآن على مفهوم ((استلاب الذات)) .

لنبدأ بتعريف . يمكننا تعريف استلاب الذات ، على اساس من نصوص ماركس ، وكما يفهمه ماركس ، بهذه الكلمات : استلاب الذات علاقة يصبح فيها الانسان غريبا عن الناس

الآخرين، والمجتمع ، ومؤسساته، واحتمالا عن ((أنا)) الخاص .

توحي أسماء العلاقتين اللتين تهمننا هنا ــ ((الاستلاب)) و ((استلاب الذات)) ــ برابطة قوية ، بل وحتى بنوع من التطابق . فكون الكلمتين تملكان جذعا مشتركا بينهما ــ ((الاستــلاب)) ــ وكون الاختلاف بينهما يقوم فقط على اضافــة ((ذات auto))

يبدو وكانه يثبت أننا فى كلتا الحالتين أمام ظاهرة واحدة نسميهــا ((الاستلاب)) . وهذه الظاهرة ترتد احيانا الى الانسان ، وأحيانا أخرى الى منتوجاته . وبالمثل ، يمكن ان يبدو اننا نفهم علاقــة ((الاستلاب)) بكلمات متطابقة فى كلتا الحالتين ، وذلك اذ نؤكد أن الامر يتعلق فى الحالتين بعلاقــة اجتماعيــة ((الانســان ــ منتوجاته)) ، وان الاستلاب يمس تارة المنتوجات ، وتارة اخرى الانسان بذاته . والحال ان الامر ليس كذلك ، ولكى نفهـــم المشكلة ، يتعين علينا ان نتجاوز ما توحى به الكلمــات . اكيدا ان كلمات ((استلاب)) و ((استلاب الذات)) تملك جذرا مشتركا ، وأكيدا أن الكلمتين تستندان الى العلاقة الاجتماعية ((الانسان ــ منتوجاته)) ، ولكن الأمر يتعلق بظواهر مختلفــة .

ولكى نسلم بهذه الوضعية ، يجب علينا ان نهتم ، عن كثب ، بجذر ((استلاب)) ، ذلك الذى يظهــر فى كــل مــن التسميتيــن Entfremdun, Selbstentfremdung بالالمانية اى ((الاستــلاب)) و ((استلاب الذات)) تبعا لمقابليهما الرديئين فى اللغات الاخرى ، واللذين يلزمنا ان نسلم بهمــا .

تعنى Entfremdet ((أضحى ، أصبح غريبا)) . وعبــارة ((الانسان غريب)) واضحة فى معناها ، وشكلها ذاته يطابق قواعد معنى اللغة : فالانسان يمكن ان يكون غريبا أو ــ بالعكس ــ اليفا يشكل جزءا من دائرة معينة من الناس . ولكن الاشياء ؟ ولكن منتوجات الانسان عامة ؟ باى معنى نقول عنها انهــــا

((غريبـــة)) ، وعنى التوالى ((مستلبة)) ؟ بديهى اننا نقول ذلــك بمعنى استعارى ، مجازى ، لا بمعنى مباشـــر .

نقرأ فى روبير الصغير ، لكى نستعمل قاموسا شائعا بكثرة، هذا التعريف لغريب ((هو الذى لا ينتمى الى مجموعة (اجتماعية، عائلية) اما ما هو معتبر كذلك)) ، وأن تكون غريبا عن شـىء ما معناه الا تشارك فى هذا الشىء ، أن تقف بمعزل عنه ... الخ ان التعريف الذى نتكلم عنه جد واسع ، ويسمح بتعريف قضايـا وأشياء بوصفها ((غريبة)) كذلك . ولكن ، حتى بقبولنا لهـــذا التعريف اتواسع ، او لتعاريف أخرى مماثلة ، فاننا لا نجد فيهـا الغطاء السيمى لترجمة ما نفهمه عند ما نتكلم عن ((استــلاب)) منتوجات للانسان . لانه فى هذه الحالة لا يهم الا تنتمى هـــذه المنتوجات المستلبة الى دائرة معينة من الاشياء ، فما يهم هو أن هذه المنتوجات ـ والخطأ هنا معزو الى الكيفية التى نتكلم بها عن تلك المنتوجــات ـ تتصرف وتفعل كما يتصرف ويفعل النــاس الغرباء والمتعادون فيما بينهم : انها تصبح كقوة مستقلـــة ، ((تعارض مخططات الانسان)) ، ((تستعبد الانسان)) ... الخ . واضح أن الامر يتعلق هنا بتعبيرات مجازية . فما يجرى فـــى الواقع ، هو أن منتوجات الفاعلية الانسانيـــة ، اذ تدخـــل ـ بوصفها سلعة ، أيديولوجية ، مؤسسة اجتماعية ، ... الخ ـ فى دائرة علاقات اجتماعية محددة (أى ، فى التحليل الأخير، ـ علاقات ما بين الافراد) والآليات التى تتحكم فيها ، فانها تسبب نتائج مضادة لاهداف منتجيها ـ الأزمات ، التفتيشات التعسفية، البيروقراطية ، ... الخ . وبناء على ذلـــك ، فكلمة ((غريـــب)) ليس لها من معنى هنـــا بقدر ما تحدث هـــذه المنتوجـــات ، فى ظل وضعية معطاة ، نتائج ((غريبة)) عن اهداف صانعيها .

ان الوضعيه اتختلف بمجرد ما نطبق كلمة ((استلاب)) ، لا على منتوجات الانسان ، بل على الانسان نفسه . ففى هـــذه الحالة ، يكون استعمال كلمة ((غريب)) بمعناها المباشر أمـــرا معقولا ، لأن الانسان الذى يطرح جانبا نظاما اجتماعيا معطى ، ويظهر نتيجة فعله هذا ، مواقف سلبية بالنسبة الى النـــاس الآخرين ، يشعر أنه غريب فعلا فى هذا المجتمع ، الوسط، وحتى عن انـــاس الآخرـــن أيضـــا .

تتعقد المسألة حينما يتعلق هذا ((الاستلاب ــ الذاتى)) بــ ((آنا)) الانسان الخاص . ولكن هنا ايضا ، يمكن أن نتكلـــم ، بكيفية معقولة للغاية ، عن استلاب بالنسبة الى الدور الاجتماعى الذى يقوم به الانسان فى الواقع ، بالنسبة الى ما يوجد عليـــه فعلا ، بالمقارنة مع ما يريد أن يكونه . وعلى كل حال ، فلقـــد طرح ماركس هذه المشكلة بمثل هذه الكلمات ، وطورها فـــى نصوصه حول موضوع استلاب فعل العمل من حيث هو عدم ــ تحقيق لرغبات الانسان وتطلعاته (بالمعنى الايجابى لهذه الكلمة) بالنسبة الى شخصه . وهكذا تكون لزيد طموحات فنية ، ولكنه، لكى يكسب قوته ، ملزم بملىء أوراق طوال اليوم : فهو يعيش هذه الوضعية كفقدان لحياته الحقيقية ، وعمرو ، بسبب من هدف لديه ، انخرط فى نظام استبدادى ، وتخلى عن مثله العليـــا لينادى بشعارات لا يؤمن بها ، انه يعرف أنه شخص دنىء ، ويعيش هذه الوضعية كهزيمة شخصية ، حاقدا على ما يفعلـــه وعلى الذين دفعوه الى ذلك ، ... الخ . وأما على ، فهو رجل علم ، يشتغل بما يحب حقا ، ولكن النتائج رديئة ، لاتستجيب للآماله . انه يشعر بانه مخيب ، ويعيش حياته كـــ ((عـــدم ــ تحقق)) ، كوجود ((زائف)) ، غريب بالنسبة الى الصورة التـــى يتمناها شخصه . ولفهم هذه الوضعيات التى توضح فكـــرة معقولة وعقلية حول استلاب ((الأنا)) الخاص ، لسـت بحاجـــة

لان أقوم هنا بتفاصيل انتروبولوجية دقيقة ، ولا أن أملك صورة عن «ماهية الانسان» او عن «الطبيعة الانسانية» — أى فهم المشكلة فهما ميتافزيقيا و «لا علميا» للغايـة .

صحيح ومؤكد ان ماركس يتكلم فى أحد نصوصه عن Entmenschlichter Mench * وفى عصرنا ، نتكلم احيانا عن «الحياة اللا انسانية» ، الأمر الذى من شأنه ان يوحى بوجود نموذج لما هو «انسانى» وما هو ليس كذلك . وفى حالة ماركس حقا ، كما فى حالة المفكرين المعاصرين ، فان ما يتم هو ارجاع الوقائع التى تنصب عليها احكام سلبية الى انسقة قيم مقبولة ، واحتمالا الى نماذج من الوضع البشرى . ولكن حتى فى هذه الحالة ، لا يتعلق الامر بنوع من الماهويـة الانتروبولوجية ، وان كان هذا ما يبديه الظاهر ، بل يتعلق فقط بواقعه لا يمكن انكارها ، وهى ان الناس يملكون انساقا من القيم ونماذج شخصية محددة ، يزنون بواسطتها الوقائع واحكامهم . وبما أن هذه الانساق والنماذج تختلف ، وبما انها ترتبط بمجموع الآراء ، وبخاصة الاراء الاجتماعية والسياسية لشخص معطى ، فان ما يحدث هو أن نفس الواقعة تتيح الفرصة لظهور أحكام متصارعة ، وهذا أمر لا يثير دهشة أحد على كل حال . ان هذا يؤكد أنه يستحيل التحدث عن مفهوم ميتافزيقى واحد لـ «الماهية الانسانية» ، ولكن هذا لا يمنع قط من أن أعرف على وجه الدقة لماذا أطرح أفكار الانسان الاعلى التى دافع عنها الهتلريون ، ولماذا ادافع عن مواقف النزعة الانسانية للاشتراكيـة .

---

* — وردت هذه الكلمة بالالمانية فى النص الفرنسى ، وترجمتها العربية هى : ماهية الانسـان (المترجم) .

وانن ، فى حالة استلاب الذات ، يكون صحيا كل الصحة استخدام كلمة ((غريب)) فى معناها المبشر . فالامر، فى الواقع ، يتعلق بالانسان الذى يكون ملزما بان يعيش بعض الاوضاع ، ولان يقوم ازاءها بردود فعل ، ولان ينمى فى ذاته بعض الاحاسيس والمواقف بوصفها استعدادات للفعل . وهذه الكلمات، بانتقالها الى ارضية الاستلاب ، اى بانتسابها لا الى الانسان، وانما الى منتوجاته ، تملك دلالة مجازية ، وتثير صعوبات . ومن هذا ، ولاسباب اخرى على وجه الاحتمال ، كان بعض الكتاب ، ومن ضمنهم مفكرون يقتربون من الماركسية ، يقترحون قصر مسالة الاستلاب ، قصدا ، على الانسان . غير ان جوهر الصعوبة يقوم على امكانية ايجاد كلمة اخرى للدلالة على الاستلاب الموضوعى الذى يوجد ، مهما يكن من امر ، فى ادبيات الموضوع ، وفى المقام الاول لدى ماركس . وبالإضافة الى ذلك ، وبكيفية خاصة ، فضرورة تحليل العلاقات الاجتماعية الواقعية التى تبرر التمييز بين الاستلاب الموضوعى والاستلاب الذاتى من شانها الا تبقى صعوبة اقل (مهما كان راى خصوم هذا التمييز الذى يصفه جوزيف كابل بالسكولائية) (1) .

باستمرارنا فى تصنيف المشاكل التى يطرحها استلاب الذات يمكن ان نتساءل الى اى عنصر تستند اساسا هذه الكلمة : الى علاقة للانسان بـ ((انا)) الخاص ، أو الى علاقة الانسان بالافراد الآخرين وبالمجتمع ، أو الى هذين العنصرين المختلفين من حيث مضمونهما كذلك ؟ سنتبنى موقف ماركس الشاب الذى استخدم كلمة Selbstfremdung للدلالة على كل هذه العلاقات . غير انى اقترح هذا التحديد ، وهو فى الحالة الاولى

---

1 — جوزيف كابيل ، سوسيولوجية الاستلاب ، باريس 1970 ، مطابع فرنسا الجامعية ، ص 23 .

يربط فيها الاستلاب بـ ((أنا))الانسان ، يكون المقصود هــــو الاستلاب الذاتي بالمعنى الضيق ، وحينما يرتبط الاستلاب الذاتي بمجموع تجليات استلاب الانسان ، يكون المقصود هو الاستلاب الذاتي بالمعنى الواسع . وبالمثل ، فاننا نستخدم تعبير ((الاستلاب الموضوعي)) في حالة استلاب منتوجات الفاعليــة للانسانيـــة ، وتعبير ((الاستلاب الذاتي)) في حالة تجليات الاستلاب الذاتـــي . صحيح أن هذه التمييزات لا توجد لدى ماركس بهذه الصياغة ، ولكن يمكن ادخالها في نظرية الاستلاب ، من غير أن نغير فـــي شيء مضموناتها ، أنها تمييزات ستكون ضرورية لنا فيما سيلي من تاملاتنا حـــول أشكالية الاستـــلاب .

6 ـــ هناك سؤال يطرح نفسه علينا الآن ، كنتيجة منطقية لتحليلاتنا : ما هو الرابط بين علاقات الاستلاب الموضوعـــــــي والاستـــلاب الذاتـــي ؟

ليس هناك من شك في أنهما نوعان مختلفان مـــــــن العلاقات الاجتماعية ، واذا كانت هناك كلمة واحدة تستخـــدم للدلالة عليهما ، وهذا أمر لا يخلو من أمكانية ايقاعنا في الخطاء فذلك لانهما حقيقة يملكان عنصرا مشتركا ، هو هــــــــذا ((الاستـــلاب)) المشهــــور .

ولكن هناك أشياء في كلتا الحالتين تختلف أختلافا كبيرا . ففي حالة استلاب ـــ الذات ، يتعلق الأمر بالاحاسيس ، والمواقف والتجارب التي يعيشها الفرد المستلب او الغريب في علاقتـــــه بذاته ، وبالناس الآخرين في المجتمع ، وفي حالة الاستـــــــلاب الموضوعي ، نستخدم نفس الكلمات ، ولكن بمعنى مجـــازي ، لأن المعنى بالامر في الواقع هو التطور الاجتماعي العفوي ، الذي يضاد أهداف ومقاصد الانسان . وواضح ان الامر كان سيكـــون احسن ، لو ان كل مجموعة من هذه العلاقات الاجتماعية تحمل

اسما خاصا بها ، ومتميزا عن الآخر . فعندئذ ، كان بامكاننا ان نتلافى كثيرا من الخلافات ذات الطابع اللغوى . ولكن ، بما ان استخدام اللغة واقعة معطاة لنا ، فان الدقة المطلوبة لا يمكن الوصول لها الا بكشف تعددية المعانى Plurivalence الخاصة بالكلمات المستخدمة ، والبحث عن معنى وحيد Univoque نعطيه لها .

وهكذا ، وخلافا لما توحى به وحدة الكلمة التى تشير الى الاستلاب الموضوعى والذاتى ، فان ما يقوم بينهما ليس علاقة استلاب الذات ، يوتد على اساس من وجود الاستلاب الموضوعى، تطابق ، وانما علاقة علة بمعلول . فالاستلاب الذاتى ، أى ولا يصبح مفهوما ، من وجهة نظر تكوينية ، الا على هذا الاساس وحده . واستباقا لعروضنا اللاحقة نقول هنا ما يدعو الى ملاحظة ان الضعف النظرى المرتبط بالاشكالية السوسيولوجية المعاصرة بالاستلاب يتشكل ، بالاضافة الى عوامل اخرى ، من عدم فهم هذه العلاقة : فاشكالية الاستلاب الذاتى (التى تلف عندها مبدئيا ، الابحاث السوسيولوجية) يتناولها البحث كما لو كانت هذه العلاقة لا وجود لها .

ان هذه المشكلة ترتبط بمشكلة طابع الاستلاب ، من حيث هو مشروط تاريخيا ، ارتباطا وثيقا . فاذا كان الاستلاب لا يشكل عنصرا لصيقا بالوضع البشرى — وهذا افتراض لا يمكن ان يسلم به باحث افريقى دونما تحفظات — فانه من الجدير البحث لمعرفة منشأ استلاب — ذوات الافراد عن المجتمع ، وعن أنفسهم . ان هذا السؤال يصبح ذا أساس، سيما وان الظواهر ((استلاب — الذات)) هذه ، اى التى نشير اليها بكلمة واحدة لا تظهر للعيان دوما ، بل هي تحتدم في بعض الفترات وفي بعض الظروف ، او هي ايضا تكون ، في فترة واحدة ، قوية

فى بعض الاوساط الاجتماعية ، بل وحتى منحصرة فى هذه الاوساط وحدها . لماذا ؟ اذا لم نضع هذه الاسئلة على انفسنا، واذا لم نبحث للاجابة عنها ، فان كل بحث فى هذا الميدان سيكون ناقصا ، هذا اذا لم يكن مصيره الفشل على ضوء المعايير العلمية . وهنا تظهر ، بجلاء ، علاقة هذين النمطين من الاستلاب تلك العلاقة التى شرحناها من قبل .

ان استلاب الافراد او فئات اجتماعية برمتها (مثلا ، الشباب ، الاقليات الوطنية المضطهدة ، ... الخ) بالنسبة الى العلاقات الاجتماعية القائمة ، مع ما يترتب عن ذلك من النتائج، يتم حيثما تكون هذه العلاقات غير مرضية لهؤلاء الافراد والفئات. والحالة هذه ، فان هناك علاقات اجتماعية (بالمعنى الواسع للكلمة) غير مرضية تكون نتيجة تطورها العفوى عامة — اى استلابها الموضوعى . فالاستلاب الموضوعى هنا هو الاول دوما، وعمليات التغيير التى تقود بالضرورة ، فى لحظة ما، الى مختلف اشكال الاستلاب الذاتى تبدأ منه . وفهم هذه العلاقة التى توجد فى الواقع يفوق فى أهميته البحث عن قاعدة مشتركة لكلمة «استلاب» . وأهمية هذا الفهم تتجلى، قبل كل شىء ، فى مواجهتنا لامكانيات العمل الهادف الى ازالة الاستلاب .

7 — يمكننا ان نجازف بالتأكيد القائل ان ماركس تناول اشكالية الاستلاب واضعا نصب عينيه تجاوزه اساسا — اى ازالة الاستلاب . فغاية الماركسية ، فى الواقع ، ليست تشخيص الشر الاجتماعى فحسب ، وانما هى أيضا معالجته، والعمل على الوقاية منه ، وهذا ما يشكل اساس بروز المقدمات العامة لبنية مجتمع المستقبل فى خطوطه الجوهرية — الشيوعية .

وما دمنا قد تكلمنا عن تشخيص ، ومعالجة ، والوقاية من الشر الاجتماعى (اصطلاحات طبية استخدمناها بحكم المماثلة،

لان الامر يتعلق بعلامات خاصة ترتبط بامراض الجسم الاجتماعى» فانه يجدر بنا ان نقوم بملاحظة من شانها ، ابتداء من الآن ، ان تهيأ ما سياتى من اعتباراتنا حول هذا الموضوع ، اذ كانت هـــذه الملاحظة لم تصدر عن ماركس . هذه الملاحظة هى : من الخطــا وضع علامة المساواة بين كل استلاب والشر الاجتماعى . ان «الشر» / «الخير» الاجتماعى ــ بوضوح ــ شكل لحكم مـــا ، والحال أن كل حكم يجب أن تكون له منظومة مرجعية . ومـــن هنا ، فان الحكم الذى ينصب على ما هو «خير» وعلى ما هـــو «شـــر» اجتماعى ليس حكما مطلقا ، وانما هو حكم دو طابع نسبى Reltivisé بالقياس الى مصالح طبقية محددة ، الى مصالح أخرى . هذا مثال : استلاب الطبقة العاملـــة بالنسبـــة الى المجتمع الرأسمالى ومؤسساته ليس ــ من وجهة نظـــر الايديولوجا الماركسية ــ شرا اجتماعيا ، بل العكس . الامـــر كذلك فيما يتعلق بكل موقف ثورى يقضى بوجود استلاب بالنسبة الى النظام الاجتماعى الذى يولد الشر الاجتماعى ، ولا يمكن ـــ منطقيا ــ ان يكون موصوفا بانه كذلك من تلقاء نفسه . نحن نفترض دوما الأخذ بنسق من القيم تستند عليـــه الاحكـــام . وبديهى ان هذه الاحكام تتغير بمجرد تغير هذا النسق . وعلى كل حال ، فمن الخطا ان يكون الاستلاب ، بالتعريف ، مماثـــــلا للشر الاجتماعـــى .

نعد ، مع ذلك ، الى مشكلة القضاء على الاستلاب ، تلك التى ترتبط بالطابع التاريخى للاستلاب ارتباطا وثيقا . فلاا كان الاستلاب خاصية ملازمة للوضع البشرى ، لكان من غير الممكن تجاوزه . ولكن بما أن التموضع وحده هو ما يشكل ظاهـــرة ضرورية فى كل تشكيلة اجتماعية ، فى حين ينشا الاستـــلاب فى شروط اجتماعية خاصة ، فان عملية القضاء على الاستلاب

يمكن الوصول اليها عند نهاية ازالة هذه الشروط . واذا كان الاستلاب، فى المجتمع الرأسمالى ، هو نتيجة الملكية الخاصة لادوات الانتاج تقسيم العمل ، فان عملية القضاء عليه تتم ضرورة عن طريق الغاء الملكية الخاصة وتقسيم العمل . ونتيجة هذا العمل الاخير هى الشيوعية من حيث هى مجتمع المنتجين الذين يشتركون فيما بينهم عن حرية . ولكن ما يهم فى هذه الحالة ، ليس النظرة التى كان يمتلكها ماركس عن الشيوعية فى عصره، وانما الكيفية التى نفهم بها الاستلاب وعملية القضاء عليه ، وهى تلك التى نفهمها على اساس وجود علاقة تشارط ملموسة فيما بينهما .

ان المفهوم الماركسى للاستلاب واستلاب الذات يقضى ، نفس المنطق ، بالاطروحة المعروضة اعلاه ، التى بموجبها يقوم اساس عملية القضاء على الاستلاب على ازالة الاستلاب الموضوعى واستلاب منتوجات الفاعلية الانسانية ، والطابع العفوى للتطور الاجتماعى الذى ينجم عن ذلك ، لانه — كما لاحظنا ذلك سابقا — هو الذى يشكل ، من وجهة نظر توليدية ، اساس ظواهر استلاب ذوات الافراد، بمعنى أول يتعلق بتجاربهم المعاشة كافراد غريبين عن المجتمع ، وبمعنى غيابهم عن الالتزام فى قضاياه ، ... الخ .

ب — الاستلاب التشيؤ .

سنركز هنا على مشكلتين :

اولا : مفهوم التشيؤ لدى ماركس ،

ثانيا ة مفهوم التشيؤ لدى لوكاتش .

بالاضافة الى كلمتى Vergenständlchung, Entfremdung

اللتين هما على التوالى ((الاستلاب)) و ((التموضع))، يستخدم ماركس كلمة Verdinglichung — ((التشيؤ)) أيضا (من الكلمة الالاتينية — ((الشيء)))، وتلعب هذه الكلمة دورا هاما فى نظرية ماركس ، كما فى المناقشات المتعلقة بموضوع الاستلاب ، فى هذه السنوات الاخيرة . فالبعض بدأ فى الواقع بأنه اعتبر مفهوم ((التشيؤ)) اكثر دقة من مفهوم ((الاستلاب))، وأنه — بعكس هذا الاخير — يمكن أن يصبح عمليا ، ويؤدى بالتالى خدمات كبيرة فى الابحاث التجريبية .

تشكل مقولة التشيؤ الماركسية ، كما سبق أن قلنا ذلك، عنصرا هاما فى سياق مفاهيم

Vergegenständlichung Entfremdung

Fetischismus - Verdinglichung

فهذه المفاهيم ترتبط فيما بينها ارتباطا وثيقا ، ويوجد بينها ترابطا تكوينيا سنحاول ابرازه فى تحليلنا . مهما يكن من أمر ، فان جوزيف اسرائيل ، الذى شايع فكرة استبدال مفهوم ((الاستلاب)) بمفهوم ((التشيؤ)) ، لا يرتكز على اساس حينما يؤكد أن المفهوم الاخير لا يصدر عن ماركس ، وانما عن لوكاتش (2) . ذلك لان الامور تظهر ، على اساس من أعمال ماركس ، بهذه الكيفية .

التموضع بالنسبة الى ماركس ، ضرورة تعلو على التاريخ ظاهرة تتدخل فى كل تشكيلات المجتمع ، لان الانسان لا يمكنه أن يعيش وأن ينتج من غير أن يموضع . وكما يتعين على الفكر الانسانى أن يتخارج لكى يصبح واقعة اجتماعية تسرى

---

2 — جواشيم اسرائيل ، الاستلاب — من ماركس الى السوسيولوجيا المعاصرة باريس 1972 ، منشورات انتروبوس ، ص 97 .

ما بيـن الافراد ، كذلك فانه يتعين على الفاعلية الإنسـانية أن تتموضع . وهذه الاطروحة لا تنطوى على شىء من النزعـة الانتربولوجية ، وانما هى تنتج عن تحليل معقول للعمل الانسانى. أن ((التموضع)) يعنى ان العمل الانسانى يتحقـق فى شكـل موضوعى ، بالمعنى الابيستمولوجى لهذه الكلمة ، اى ان العمل يصبح وجودا موضوعيا ، خارج الذات العارفة وبمعزل عنها . ولكن هذا لا يقول شيئا عن مسألة معرفة ما اذا كـان هذا الوجود الموضوعى يمتلك صورة الاشياء أو الموضوعات الروحية (مثل القصيدة ، العمل الموسيقى ، المكتوب العلمى) ، او ما اذا كان ، أخيرا ، يكتسى شكل علاقات ما بين الإفراد كالمؤسسات الاجتماعية : الدولة ، الإسرة ، ... الخ . فاذا ما اعتبرنـا التموضع كفصل ، فى حين تشكل الاشياء مجموعة صغيرة من من المجموعة بحصر المعنى ، فعندئذ يشير ((التشيؤ)) الى جزء من فصل الموضوعات التى تدل عليها كلمة ((تموضع)) .

من الواضح ان فاعلية الناس المنتجة تبلغ أوجها فى الاشياء أيضـا ، اى فى موضوعات تملك شكل الموضوعات الفيزيقيـة وصفاتها المميزة ، اى الاشياء . ومع ذلك ، فان توكيدا من هذا الشكل سيكون مبتذلا ، وليس هو ما كان يستهدفه ماركـس بمقولته ((التشيؤ)) — Verdinglichung ، وأن كان من الواضح انه ، فى تحليله — كاقتصادى — لانتا ودوران السلع فى السوق ، يقف أمام ((أشياء)). على ان ماركس لا يستخدم كلمة ((وجود الشرك)) — Dingsein ، وانما هو يستخدم كلمة ((تشيؤ)) — Verdinglichung ، اى تحول ما هو ليس بشىء الى شىء ، فهم ما هو ليس بشىء كشىء . فما هو جوهر المشكلة بالنسبة الى ماركس ؟ عندما يصبح كل شىء — بما فى ذلك الناس ، قدراتهم وملكاتهم — فى ظل نظام الاقتصاد

الراسمالى ، سلعة ، فان اتجاه الامور يتضح ، ويصبح اكثر فاكثر غالبا ان يعامل كل شىء كسلعة ، اى كشىء يباع ويشترى ، ولكن ايضا ، وبما ان السلع اشياء ، بالمعنى المباشر للكلمة ، فان الاتجاه يكون نحو ادراك الكل كاشياء ، نحو تزويد الكل بطابع الاشياء ، وبهذا المعنى يكون الاتجاه نحو التشيؤ . وهذا يهم العلاقات بين الافراد ايضا ، تلك التى تدرك كعلاقات بين اشياء بين اشياء — منتوجات عملهم . وفى هذا الاتجاه ، يتم حدوث تشيؤ العلاقات القائمة ما بين الافراد ، وهو تشيؤ يخفى جوهر العمليات الاجتماعية . وهذا — تبعا لماركس — يصبح ممكنا ، لان حدوث استلاب (موضوعى بالطبع !) منتوجات الفاعلية الانسانية ، فى ظل شروط اجتماعية محددة ، يولد — دوما تبعا لماركس — الملكية الخاصة ، وان كان هناك تداخل ، فى التطور الاجتماعى اللاحق ، ما بين الاستلاب من جهة والملكية الخاصة وتقسيم العمل من جهة اخرى . واذن ، فالتشيؤ ، تبعا لماركس ، نتيجة للاستلاب وصنيعته .

وهذا ما يقوله ماركس عن ذلك ، فى الكتاب الرئيسى الذى يبقى علينا ان نكتشفه ايضا ، فى أسس نقد الاقتصاد السياسى : « عندما يتخذ المال شكل وسيلة التبادل » — وليس عندما يستخدم معيارا — يتبين الاقتصاديون انه يقتضى تموضع العلاقات الاجتماعية (...). يعترف الاقتصاديون عندئذ ان الناس يؤثرون وضع ثقتهم فى الشىء (المال) بدلا من الناس . لماذا ؟ او ليس، بكل وضوح ، لان العلاقات بين الافراد قد تثبتت فى الاشياء ، لان قيمة التبادل ذات طبيعة مادية ، وليست سوى علاقة مستلبة للفاعلية الانتاجية بين الاشخاص . ان رهنا يمكن ان يكون نافعا بالنسبة لمن يستلمه ، ولكن المال ليس كذلك الا

بوصفه ((رهنا ذا قوة اجتماعية))، وهذا ما لا يمكن أن يكونه بمقتضى صفته الاجتماعية (الرمزية) ، وانحال كذلك ، فـــان المـــال يست له سوى هذه الصفة الجديدة ، لان الافراد يعملون على استـــلاب علاقتهم فى شكل موضوع)) (3) .

هذا المعنى الخاص بالتشيؤ ، من حيث هو ادراك مشوه للتموضع ، ومن حيث هو تجريد العلاقات القائمة ما بين الافراد مما هو انسانى فيها ، وادراكها كعلاقات بين اشياء هى — مع ذلك — منتوجات عمل الناس ، هذا المعنى ، اذن ، يفهمه جيدا مفكرون لا ينتمون للماركسية أيضا (4). ولهذا يكون مدهشا الا يفهمه آخرون ((من بينهم)) اتباع البنيية المسماة بالماركسية. فهؤلاء يعتبرون ، فى الواقع ، أن تحليل ((البنيات الموضوعية)) التى تجلى الانسان وعلاقات ما بين الافراد ، هى التعبير العلمى للماركسية ، هذا فى وقت تعارض فيه هذه الاطروحة ، بوضوح، أقوال ماركس ونضاله هذا الفتيشية . فلماذا نعطى أنفسنـــا كثيرا من العناء فى قراءة رأس المال ، اذا كان ذلك لانكار مـــا كتبه ماركس فى هذا المؤلف فيما بعـــد ؟ !

ولكن لنعد الى المشكلة الحقيقية ، وهى تفسير التشيؤ فى كتاب لوكاتش التاريخ والوعى الطبقى ، ذلك الكتاب الذى أصبحت المشكلة مشهورة عند نهايته . ينبغى ان نحفظ فى الذاكرة أن الدراسات التى ينطوى عليها هذا الكتاب المنشور عام 1922 ، وبخاصة منها الدراسة حول التشيؤ ووعى البروليتاريا ، قـــد

---

3 — كارل ماركس ، أسس ... ، باريس 1968 ، منشورات أنتروبوس ، الجزء I ، ص 97.

4 — بيتر.ل. برجر وتوماس لوكمان ، البناء الاجتماعى للواقع ، نيويورك 1966 ص 82 وما بعـــدها .

ظهرت فى مرحلة كانت فيها أعمال ماركس الرئيسية والمتعلقة بمشكلة الاستلاب مجهولة (فالايديولوجيا الالمانية و المخطوطات طبعت عام 1932 و الاسس ·· عام 1939 — 1941) ·
وكتاب لوكاتش كان استنباطا عبقريا انطلاقا مما كان معروفا من كتابات ماركس وهيجل فى ذلك الوقت ، وهو ينم عن حدة ذهن لدى الكاتب نادرة ، هذا ولا يمكن ان ننكر ما للوكاتش من فضل فى كشف جانب غير معروف جيداً من فكر ماركس وادخاله الى عالم النظرية ومع ذلك ، فهناك من الافكار ما يتطلب تصحيحا على ضوء أعمال ماركس المنشورة بعد العشرينات · وهذه التصحيحات سيقوم بها لوكاتش بنفسه جزئيا فى مقدمته للطبعة الثانية من كتابه عام 1967 · ولهذا يكون مناسبا قراءة المؤلف وتفسيره فى اطار هذه المقدمة ·

ما هى الكلمات التى فهم بها لوكاتش ، عام 1922 ، مشكلة التشيؤ ؟ لقد فهمها بكلمات مطابقة لنصر ماركس حول فتيشية السلعة الموجود فى المجلد الاول من رأس المال ، ولكنه أعطى لهذا المفهوم معنى اكثر اتساعا من ماركس (كما يشهد بذلك النصوص الماركسية التى كان لوكاتش يجهلها) ، ولقد استنبط من هذا المفهوم ((التشيؤ)) ليس فقط مقولة الفتيشية ، وانما أيضا مقولة الإستلاب · واكرر ما قلت : لقد كان ما فعله لوكاتش هنا عملا فكريا ، حقيقيا ، باهرا أدخل به — لاول مرة منذ هيجل وماركس — مقولة الاستلاب فى الإدب الفلسفى ، عاملا بذلك على احياء حقيقى لها ، وبخاصة فى الادب الوجودى (فهايدجر ، وان لم يقل شيئا عن ذلك ، وسارتر الذى اعترف بذلك بصدق ، مدينان للوكاتش فى هذا الصدد)· واذا كان لوكاتش — كما اعترف بذلك فى مقدمته عام 1967 — يقترب أكثر الى هيجل منه الى ماركس ، فى تصوره للاستلاب ،

وتاويله لمشكلة عملية القضاء عتيه بمصطلحات مادية ، فـان هذا يفسر بكونه توفر على فيتومنولوجية الروح لهيجل ، فى حين لم يكن يعرف نصوص ماركس الرئيسية حول هذا الموضوع . ولكن لنترك لوكاش يتكلم بنفســه .

يطرح لوكاش مشكلة التشيؤ ، بكيفية ملموسة ، علـى اساس من تحليل السلعة والاقتصاد البضاعى ، متبعا فى ذلك تحليل ماركس لفتيشية السلعة .

« أن جوهر البنية التجارية غالبا ماتم التشديد عليه ، فهو يقوم على واقعة مؤداها أن رابطة ما ، علاقة بين اشخـاص تأخذ طابع شىء ، وبهذه الكيفية ، طابع « موضوعية » وهمية تخفى ، بواسطة نظام قوانينها الخاص ، الصارم المغلق كلية ، العقلى ظاهريا ، تخفى كل أثر لجوهرها الرئيسى : العلاقة بين النـاس » .(5)

وحينما تصبح الصورة التجارية صورة عامة ، فان التشيؤ يصبح كذلك ايضـا . ان لوكاش يذكر بكلمات مـاركس فى المجلد الاول من رأس المال :

« يتشكل الطابع الغامض للصورة التجارية ، اذن ، من كونها ترد الى الناس السمات الاجتماعية لعملهم الخاص ، وذلك بتقديمها لهم كسمات موضوعية لمنتوجات العمل نفسها ، كخاصيات اجتماعية طبيعية لهذه الاشياء ، ومن ثم ، وبالكيفية ذاتها ، فان علاقة المنتجين الاجتماعية بمجموع العمل تقدم وكانها علاقة اجتماعية خارجة عنهم ، علاقة بين موضوعات . ونتيجة

---

5 — ج. لوكاش ، التاريخ والوعى الطبقى ، باريس 1960 ، مطبوعـات مينـوى ، ص 110 .

لهذا الغموض ، تصبح منتوجات العمل سلعا ، اشياء تتخطى المحسوس ، وان كانت أشياء محسوسة او اجتماعية ... وليس غير العلاقة الاجتماعية المحددة بين الناس انفسهم هى التى تكتسى هنا ، بالنسبة اليهم ، شكل علاقة ما بين الاشياء المخـــادع . » (6)

انطلاقا من هنا يدخل لوكاتش مقولة استلاب العمل كما لو كان يقرأ المخطوطات ، ويقدم الافكار المستوحاة من هذه القراءة وفى الحقيقة ، ان قدرة لوكاتش هذه على اعـــادة تركيب فكر ماركس على أساس من الاستنتاجات المستخلصة من نصوص موجودة (كتابات ماركس التى كان بامكان لوكاتش ان يعرفها فى عصره) الى أساسها المعد جيداً (كتابات ماركس المنشورة فيما بعـــد) لمدهشـــة .

« ينبغى ان نحتفظ ، قبل كل شىء ، من هذه الظاهـــرة البنيوية الرئيسية (التشيؤ ـــ ادم شاف)» انها تعمل على معارضة الانسان بفاعليته الخاصة ، بعمله الخاص به كشىء موضوعى ، مستقل عنه ، ويعمل على السيطرة عليه بواسطة قوانين خاصة ، غريبة عن الانسان . وهذا يحدث على المستوى الموضوعى كما على المستوى الذاتى . فمن الناحية الموضوعية، يظهر عالم من الاشياء المنجزة والعلاقات بين الاشياء (عـــالم السلع وحركتها فى السوق)» وتكون قوانينه ، بالتاكيد ، معترفا بها على نحو محسوس من طرف الناس ، ولكنها ، حتى فى هذه الحالة ، تكون مناقضة لهم وكانها قوى لا تقهر ، تنتج لهم من تلقاء ذاتها معلولها . حقا ان المعرفـــة بهـــا يمكن ، الآن ، ان

---

6 ـــ المرجع الســـابق ذكره ، ص 113 .

يستخدمها الفرد لصالحه ، ولكن من غير أن يكون متاحا لـه عندئذ ممارسة تأثير مغير ، بواسطـة فاعليته ، على سيـر حركتهـا الواقعية . ومن الناحية الذاتية ، فـان فـاعليـة الإنسان ــ في ظل اقتصاد بضاعي متقدم ــ تتموضع بالنسبـة اليه ، وتصبح بضاعة تخضع لموضوعية القوانين الاجتماعية ، الطبيعية ، الغريبة عن الناس ، ويتعين عليها أن تقوم بحركات مستقلة كلية عن الناس تماما كما تفعل أية ثروة تكون موجهة نحو اشباع الحاجيات ، فتصبح شيئا بضاعيا » (7) أبتداء من هذه الفكرة ، يعرض لوكاتش ، بروح من الثبات على الـرأى رائعة ، لنظرية الإنســان والنزعة الإنسانية الاشتراكية ، مع كل ما يلازمهما من نتائج نظرية الاستلاب وعملية القضاء عليه. وإذن ، ما هو جوهر المشكلة ؟ لماذا قام لوكاتش بنفسه ، عـام 1967 ، بانتقاد جذرى ومعمق لوجهات نظره ، وذلك ليس تحت الضغط الذى مورس عليه بعد تعنيف كتابه عام 1924 (لقـد اعترف ، حقا ، با « لإخطا » التى أخذت عليه وقتئذ ، ولكن هذا الاعتراف كان مقتضبا) ؟ لقد قلنا جواب ذلك ، بكيفية عامة ، من قبل لان لوكاتش لم يكن قد تحرر بعد من التأثيرات القوية للمثالية الهيجلية عليه فى فترة صدور كتابه . وكما اعترف فى مقدمته عام 1967 (لم تنشر فى فرنسا الا عام 1974 ، وذلك كملحق للطبعة الجديدة من كتابه الصادر عن منشورات مينوى)، التى يعرض فيها لتاريخ تطوره الايديولوجى والفكرى ، فـان اكتشاف المخطوطات كان صدمة حقيقية له ، وعلى الخصوص الدراسة والتفسير المادى للتموضع الذى انكب عليه مـاركس فيهـا .

---

7 ــ المرجع السابق ذكره ، ص 113 ومـا بعـدهـا .

هناك ما يدعو ، فى رأيى ، الى اضافة ملاحظتى للنقد الذى قام به الكاتب لنفسه ، وذلك فيما يتعلق بمطابقته بين التشيؤ والتمــوضـــع .

أولا : ان المطابقة بين التموضع والتشيؤ Vergegenständlichung و Verdinglichung) بسيط : فالتموضع لا يتخذ دوما شكل شىء ، والتشيؤ ، من جهة أخرى ، يقــوم على كــون العلاقات بين الناس تدرك كعلاقات بين الاشياء ، لا على كون كل تموضع (أى منتوجات الإنسان الموجودة بصورة موضوعية) يشكل شيئــا .

ثــانيــا : اذا اعتبرنا الاستلاب كتموضع يقترن بظروف خاصة، فان لوكاتش يقصر مقولة الاستلاب على استلاب ــ الذات .

ان تحليل مواقف لوكاتش حول موضوع التشيؤ يعفينا من ضرورة تحليل المواقف المماثلة لمشايعيه . فجوأشيم أسرائيل الذى ذكرنا كتابه قد أقام مفهومه بكامله على مواقف لوكاتش ، جاهلا مقدمة هذا الإخير كلية ، هذا فى وقت نجد فيه أن كتابه ، بالقياس الى لوكاتش ، قد صدر فى فترة لاحقـــة .

ج ــ الاستـــلاب وفتيشيـــة السلعـــة :

فى سياق اشكالية فتيشية السلعة ، سنتعرض لمشكلتين :
أولا : ماذا تعنى كلمة ((فتيشية)) فى أطار المفهوم الماركسى .
ثانيـــا : ماهى العلاقة القائمة بين مقولة الفتيشية او التشيؤ ، والاستـــلاب ؟

يقدم لنا ماركس بنفسه الجواب الاكثر دقة عن الســؤال الاول :

« من اين ياتى ، اذن ، الطابع الغامض لمنتوج العمل حالما يتخذ شكل بضاعة ؟ ياتى ، بالتاكيد ، من هذا الشكل نفسه . فطابع مساواة الاعمال الفردية يكتسب شكل قيم منتوجات العمل ، وقياس الاعمال الفردية بواسطة ما تشغله من وقت يكتسب شكل مقدار قيمة منتوجات العمل . وأخيرا ، فان علاقات المنتجين ، التى تتاكد فيها السمات الاجتماعية لاعمالهم ، تكتسب شكل علاقة اجتماعية لمنوجات العمل . هذا هو سبب حول هذه المنتوجات الى سلع ، أى الى اشياء تدركها الحواس ولا تدركها ، أو الى أشياء تدركها الحواس ولا تدركها ، او الى أشياء اجتماعية (...) . ولكن شكل القيمة وعلاقة قيمة منتوجات العمل ليست لهما مطلقا اننى صلة بطبيعتهما الفزيقية . فما يكتسى هنا شكلا غريبا بالعلاقة اشياء فيما بينها هو فقط علاقة اجتماعية محددة للافراد فيما بينهم . ولكى نجد نضيرا لهذه العلاقة ، يتمين البحث عنه فى الميدان الغامض من العالم الدينى . فهناك ، يكون لمنتوجات العقل البشرى مظهر كائنات مستقلة ، لها اجسام خاصة ، وعلى اتصال بالناس وفيما بينهم . والامر كذلك فيما يتعلق بمنتوجات اليد البشرية فى عالم التجارة . ان ذلك هو ما يمكن ان نسميه بالفتيشية العالقة بمنتوجات العمل ، بمجرد ما تظهر كسلع ، وهى فتيشية لا تنفصل عن هذا النمط من الانتاج » (8) .

المشكلة هنا مطروحة بكلمات واضحة للغاية ، فعندما تبدو العلاقات الاجتماعية بين الناس كعلاقات بين منتوجاتهم ــ السلع ــ فان السلعة تصبح عندئذ شبيهة بصنم ، أى بموضوع يعبد

8 ــ كارل ماركس ، رأس المال ، المنشورات الاجتماعية ، المجلد الاول ، الجزء 1 ، ص 84 وما بعدها .

كاله ، وهو التجسيد الظاهرى للطاقات والملكات الإنسانية .
واذن ، فـ ((فتيتشية السلعة)) أسم لعلاقة اجتماعية تقوم فى جوهرها على كون العلاقة بين المنتجين تظهر فى الخارج كعلاقة بين المنتوجات — السلع .

أن ماركس يتكلم عن فتيتشية السلعة ، لأنه يحلل ، بكيفية ملموسة ، الصورية التجارية وعلاقات قيمة السلع . ولكن القانون الذى يصوغه قانون أكثر اتساعا فى دلالته وتطبيقه . فـ ((الفتيتشية)) بالمعنى الماركسى ، تدل على كل علاقة تبدو فيها الموضوعات التى ينتجها الانسان كدعامات لعلاقات اجتماعية تقوم ، فى الواقع ، بين الناس ، ولكنها دعامات تخفى على هذا النحو طابع تلك العلاقات القائم بين الافراد . فاذا ادركنا مثلا ، فى نظرية التواصل ، وضعا سيميا وكأنه يؤلف علاقة بين الرموز اللسانية ، واذا ما حصرنا اهتمامنا على هذه العلاقة فحسب ، فان علاقة الإفراد المتواصلين فيما بينهم تغيب عن اذهاننا . وعندئذ نكون أمام فتيتشية ترتبط بالرموز اللسانية، وتماثل وضعية فتيتشية السلعة .

اذا كان الجواب عن السؤال الاول الموضوع فى هذا السياق سهلا نسبيا ، فان الجواب عن السؤال المنصب على علاقة مقولة الفتيتشية بالتشيؤ والاستلاب جواب أكثر صعوبة وتعقيدا .

يتعين علينا ان نهتم ، أولا ، بالاطروحة التى بمقتضاها تكون نظرية فتيتشية السلعة قد حلت لدى ماركس محل نظرية الاستلاب ، وهكذا تشكل مرحلة عليا فى تطور تحليله للواقع الإجتماعى . وهذه الرواية لعلاقة مقولة الفتيتشية بمقولة الاستلاب هى الاكثر تواترا ، وبخاصة وسط الكتاب المعارضين

لنظرية الإستلاب . وعلى حين يعتبر البعض أن ماركس قـد طور نظرية الفتيشية بدلا من نظرية الإستلاب التى كان قد تركها، فان بعضا آخر يرى أن النظريتين تتعلقان بظاهرة واحدة على الاصح ، مع فارق واحد وهو أن نظرية الفتيشية تتناولها بطريقة أكثر دقـة وملاءمة .

يدلنا تحليل كتابات ماركس على أنه — أولا — لم يترك نظرية الإستلاب بصياغته لنظرية فتيشية السلعة (والدليل القائم على ذلك هو تحليل رأس المال وأسس نقد الاقتصاد السياسى)، وثانيـا — لا يمكن أن نطابق بين نظرية الفتيشيـة ونظريـة الإستلاب ، لان هذه الاخيرة ، من حيث مدلولها ، أكثر اتساعا ، وفضلا عن ذلك ، فهى تشكل ، من وجهة نظر توليدية ، أساس نظريـة الفتيشيـة .

على ضوء تحليل تصورى ، نجد أن مقولة « الفتيشية » ومقولة « التشيؤ » ترتبطان عضويا ، فهما صياغتان مختلفتان عن نفس العلاقة الاجتماعية التى تقوم على اضفاء العلاقات القائمة بين الإفراد بواسطة علاقات ما بين الاشياء . فنظرية الفتيشية تتحدث عن هذه العلاقة ، وذلك عندما تؤكد أن السلعة بوجه خاص ، تكتسى سمات صنم ، وان علاقة القيمة تظهر ، على مستوى السطح ، كعلاقة بين السلع ، تلك التى يشيد العمل قيمة استعمـالهـا . وبالمثل ، فان نفس هذه العلاقة هى مـا تتحدث عنه نظرية التشيؤ ، وذلك بوضعها أن العلاقات بين الناس تبدو ، عند السطح ، كعلاقات بين الاشياء ، وبهـذا المعنى فان هذه العلاقات تكون متشيئة réifiées . واذن ، فالنظريتان تتكلمان عن نفس الشىء ، مع فارق وهو أن نظرية الفتيشية تتناول هذه العلاقة انطلاقا من السلعة — من الشىء

الذى يتخذ سمات انسانية ويصبح نوعا من الصنم ، وفى مقابل ذلك ، يعرض التشيؤ لهذه العلاقة انطلاقا من العلاقات القائمة مــا بين الافراد ، تلك التى تكتسى طابعا متشيئــا .

لننتقل الى علاقة الفتيشية ــ التشيؤ بالإستلاب .

أولا ، وكما شددنا على ذلك من قبل ، لا تقوم نظرية الفتيشية مقام نظرية الإستلاب بحال من الاحوال ، ولا تستبدل الاولى بالثانية فيما يهدفه ماركس ، وذلك بسبب ، من بين اسبــاب اخرى ، أن هذا الاخير يرجع فى رأس المــال الى النظريتيــن بوصفهما نظريتين مختلفتين من حيث شمولهما كما مــن حيــث مضمونهما .

انهما نظريتان يختلفان من حيث شمولهما بمقدار ما ترجع نظرية فتيشية السلعة الى علاقات السلع فى السوق فقط ، على حين تتعلق نظرية الاستلاب (الموضوعى) بمنتوجات ــ المادية والروحية ــ الفاعلية الإنسانية ، بينما ترجع نظرية استلاب ــ الذات الى الانسان وعلاقته بالناس الاخرين ، بالمجتمع وبذاته .

كيف تظهر علاقة مقولة التشيؤ بفتيشية السلعة ، على أساس من نظرية ماركس ؟ تتشكل نظرية التشيؤ ونظرية فتيشية السلعة ، من وجهة نظر منطقية ، نتيجة نظرية الإستــلاب ، فهما يقومان على هذه الاخيرة ، ويؤلفان ، بالنسبة لها ، عناصرها المكونة ، وذلك بطرحهما تفسيراً أكثر اتساعا لهذه الاخيرة .

من الواضح أن فكر ماركس النظرى ــ وبخاصة نظريته فى الاستلاب ــ قد لحق بهما تطوراً هاما . فماركس انطلق مــن الاستلاب الدينى ــ وهو نقطة انطلاق طبيعية ومفهومة ، اذا

اعتبرنا العصر وعلاقات ماركس بالوسط الفلسفى ، بفويرباخ ، ببرونو باوير Bauer وستراوس أيضا — وعاد الى الارض ومعه أشكالية الاستلاب السياسى ، لكى ينتهى الى ما هو جوهرى — الى الاستلاب الاقتصادى . وهذه المرحلة الحاسمة المال . ومن الواضح أيضا أنه خلال الطريق ، مرورا بالايديولوجيا الالمانية والاسس .. ستثار مشكلات جديدة ، فى حين سيتم تدقيق من تطور نظرية الإستلاب تبدأ بالمخطوطات وتبلغ أوجها فى رأس وتطوير افكار قديمة . وهذا بوجه خاص ما حدث بالنسبة الى مفهوم التشيؤ ومفهوم فتيشية السلعة .

تنصب نظرية الإستلاب المتطورة لدى ماركس ، فى وضوح ومساواة ، على الإشكالية الاقتصادية ، وتتالف من أربعة عناصر: مقولة التموضع Vergegenständlichung ، ومقولة الاستلاب Veräusserung - Entäusserung ومقولة التشيؤ ، ومقولة فتيشية السلعة Fetischismus der war . هذه المقولات ترتبط فيما بينها ارتباطا عضويا ، وتشكل كلا نظريا ، ولكن داخل هذا المركب من المفاهيم تظهر ليس فقط بنيات أفقية ومتجاورة ، وانما أيضا بنيات عمودية من شاكلة بنية الارتباط ، وبنية العلية ، الامر الذى لا ينفى وجود تداخل وتأثير وتاثر خاص بين هذه المفاهيم .

ان المقولة اكثر اتساعا هى التموضع الذى يشكل ظاهرة تعلو على التاريخ (وبما أن نظيره السيكولوجى هو التخارج ، فان هذا ما يسمح بالتكلم عن مفهوم التخارج — التموضع) .

والاستلاب شكل خاص من التموضع ، وهو يتولد عن علاقات اجتماعية محددة . وهكذا ، فان كل استلاب هو دوما تموضع ، ولكن العكس ليس صحيحا دائما . وتشيؤ العلاقات القائمة بين الافراد هو نتيجة لعلاقة الاستلاب ، وبالتالى فالتشيؤ

مظهر خاص منه . وفي دائرة السلع ، يتيح هذا التشيؤ الفرصة لظهور فتيشية السلعة .

بهذه الكلمات المتقاربة فيما بينها الى اقصى حد ، نوجز هذا الفصل المخصص لتحليل الاداة التصورية لنظرية الاستلاب الماركسية ، تلك الإداة التى حاولنا البحث عن دقة مفاهيمها .(1)

تأليف : ادم شـــاف

ترجمة : الدامون مصطفى

باريس — مارس 1978

عن مجلة « الانسـان والمجتمع » العدد 41 ــ 42 — 1976 .

توفيــق أشــاهــد

مقدمات الوعي البورجوازي

(2)

الف باء النعادلية : الارض أم « قداسة » الملكية الخاصة

ان فكرة الارتباط بالارض والنضال من اجلها او من اجل استردادها ، فكرة أساسية ومحورية عند غلاب فى القصص التى عالجت على نحو مركز واقع المسألة الفلاحية . كمـا أن التعارض الحاسم (السلبــى احيانا والايجابى فى أحيان أخرى) بين البادية والمدينة منطلق ثابت عنده كما رأينا ، وهو تعارض ناتج فى الجوهر عن التقسيم الرأسمالى للعمل ، بحيث تكون الاولى تابعة للثانية كمصدر للتمويل وخلفية اقتصادية ضرورية.

— 1 —

لقد رأينا أن عبد الكريم غلاب فى قصته (الارض حبيبتى) حـــاول ان ينطق المرأة (حادة) بمضمون فكره الحزبى المتمثل بالارض ، او على الارجح بشعار اساسى من شعارات الحزب فى ذات المجال (الارض لمن يحرثها) وبذلك أسقط عليها وعيـــه هو ، ولم يترك لها مجالا للتعبير عن وعيها الذاتى وعن وعـــى محيطها الاجتماعى ، وذلك بصورة أساسية لان طبيعة التخلـــف الاجتماعى الذى ترسف فيه (المرأة) يسد عليها منافذ الوعى بالصورة السياسية التى أدار عليها غلاب محور بحثه . وبرأبى أن من نتائج هذا الاسقاط هو انتحار (حادة) بصورة فرديـــة تراجيدية . ان هذا الموقف فى الظاهر هو موقف غلاب المدنى. (اذ ماذا يبقى لها بعد الارض وبعد أن سلم حمو فيها وهو أقرب الاقرباء اليها و ((سيدها)) ضمن سيطرته الابوية ؟) ولكـــن هذا الموقف الظاهر ، اجتماعيا ، يبدو مقحما للغاية طالمـــا أن السؤال الذى نبنى عليه قولنا هذا هو كالتالى : ماذا يفيـــد أن تنتحر حادة وقد بيعت الارض ؟؟ . بينما يظهر على النقيض من هذا أن موقف (حمو) كان منطقيا باستسلامه ، فمع قـــوة الضغط ولا تكافؤ ميزان القوى وغيـــاب أرضية سياسيـــة / ايديولوجية تعزز مفاهيمه حول الملكية الخاصة ... يضطـــر

(حمو) أن يصبح ضحية بارادته . فيتحول التهديد الذى مورس عليه ــ من ثم ــ الى خضوع مطلق ذاتيا ، فيقر تبعا بضعفه الشخصي ، ثم يتحول ــ لو أن القصة طورت هذا الجانب ــ الى خماس عاطل على الارجح .

محوران : المرأة والرجل . وقضية : الارض . وشروط محددة : الضغط ، السد ، التوسع ، وكل هذا ضمن محيط اجتماعى محدد (القرية) تسود فيه بالضرورة علاقات اجتماعية متخلفة . الا أن الشرط الاكبر هو اخضاع (حمو) ــ رغما عنه ــ الى التقسيم الراسمالى للعمل واقراره لذلك ، بشرعية التوسع الراسمالى فى البادية على حساب ملكية الفلاحين الفقراء والمتوسطين . أن (حمو) لا يعى التناقض ــ بالطبع ــ فى هذا الخط الطبقى ، بينما راحت (حادة) تحتج على طريقتها دون أن تعيه هى الاخرى .

يمكن أن نلاحظ هنا ان عبد الكريم غلاب بدل أن يجعل الفلاح يناضل من اجل الحفاظ على أرضه انسجاما مع عقليته الذاتية (حب التملك) وانسجاما بالتالى مع واقع الطرح الحزبى ، بدل ذلك ، يدفعه الى بيعها ، ولكنه يسند دور النضال الفردى الاحتجاجى الى المراة ، مع أن هذه المراة وجدت منذ أول القصة ضمن علاقات متخلفة لا تبرر فعلتها النضالية تلك . ولهذا يمكن القول ان غلاب أنهى قصته بناء على تصوره هو ، وليس بناء على ما فى الواقع من تناقض وصراع .

الا أن غلاب استطاع ان يرغم القارىء من الناحية الفنية بمقترحه المحدد (الانتحار) حين اعتمد على ابراز مظاهر الخاص (الاسرة الفلاحية الفقيرة) ضمن المحيط العام (القرية) وفى علاقة بعام أشمل (المدينة) ، ولذلك بانتقالات جزئية ــ تراكمية

يبدأ فيها الصراع من القاعدة وينتهي نهاية مفتوحة فيها جانبان: درامي (حادة المتحرة) ذاتي (حمو المستسلم) . وبما أن الارض كانت هي الفكرة المحورية ، فقد جعلت من القصة تأخذ حجما موضوعيا ، لانها تعيش بالذات ــ أو تحاول ان تجعل القارىء يعيش ــ قضية ذات خصوصية معينة مرتبطة أساسا بالنضال الوطني في البادية (لنا مثال واضح في انتفاضة أولاد خليفة 1971) . بيد أن الحلول التي توخاها ــ من الناحية الفنية ــ لهذه القصة تبدو ثقافية أكثر منها واقعية وظني أن الاصل هو التصور الحزبي الذي نستطيع أن نبرر به موقف حادة على حساب موقف حمو . ولكننا واقعيا لا نستطيع الحسم فيما آلت اليه الاوضاع الا بناء على تحليل المعطيات العينية (القرية ، العلاقات ، الاسرة) الا أن التصور الحزبي ، بما هو أصل ، كان نموذجا ومطلقا وهو الذي حدد الاطار العام للقصة : بداية مفتوحة فالتقليل من شخصية حمو ، فالتاكيد على دور المرأة الاجتماعي ، ثم أخيرا ، مدلول الضغط الخارجي (الراسمالية الزراعية كما نعتقد) .

ــ 2 ــ

أما في قصة (الضاوية) فغلاب لا يقدم سوى تصور جزئي للوسط الفلاحي من خلال مظاهره (الخيمة ، العلاقات ..). بينما تطغى فيه حركة جذب خفية نسبيا بين الريف والمدينة ، تنتهي بانتصار الثانية على الاولى . وهو نفس الموقف الذي عالجه غلاب في قصته (الارض حبيبتي) من الناحية اساسية .

هناك ادوار مختلفة ، ولكنها أساسية فنيا . اذ لا يمكن فهم دور الفلاح (عمرو (في القصة الا بفهم تطلعه الذاتي ضمن المحيط الذي يعيش فيه ومجمل ما أحدثته الغلاة فيه ، بالخصوص

فى تصوراته ومواقفه . بل من الغلــة ــ التطلع الذاتــى ــ الطبقى ، تبدأ التطورات فى عالمه الصغير / الشخصى فتشمل حياته كلها ، فضلا عن أنها تنعكس على واقع حياة أسرته ومحيط القوى الذى تعامل معه . فالغلة بهذا الاعتبار معادل موضوعى للتطلع البورجوازى الصغير عن الفلاح الفقير برأى غلاب . كما أنه لا يمكن فهم باقى الادوار الاخرى ، التى مثلها كل بطريقته (محند ، الضاويه ، عيوشة ، الحاج الرحمونى ..) الا مــى علاقتها بالنموذج / الاساسى فى القصة (عمرو) . واذا كانت النهاية الطبيعية لاهتمامات عمرو الذاتية ، هى بيــع الارض وتفريطه فى مجتمع متخلف ، فذلك لان جوهر الصراع هذه المرة هو المدينة ، بينما تصبح الارض مجرد باعث موضوعى ، وبتغير شرط الصراع (الارض) تتغير المواقف والدلالات الرمزية الفنية . فلا عيوشة تنتحر ولا عمرو يعتريه استسلام مشين ... ولذلك فلا نعثر فى قصة (الضاوية) الا على حركة تصاعدية بصــورة مستقيمة تنتهى بالاحداث التى أوضحنــاهــا فى الســابــق ، والخاص لا معنى له هنا فى اطار العام ، أى أن الارض ومجتمع القرية والعلاقات الاجتماعية ليست الاعوامل اضافية تحــدد الاختيار الذاتى المسبق وتجعله راهنا ، دون أن تستطيع رسم أبعاده الدرامية مثلا .

يمكن القول بناء على هذا ان قصة (الضاوية) أحاديــة المنظور ، بمعنى أنها تلغى الصراع لحساب التطلعات ، وتطمس التناقضات لحاجة الاداء السردى . وربما كان ذلك نتيجة اولية لابتعاد غلاب عن طرح مفهومه السياسى / الحزبى فيها . ذلك ما نرجح ، اللهم الا اذا كان غلاب يريد القول ــ على حساب موقف مبدئى ــ ان المدينة هى البديل الموضوعى للقرية ، اى للارض ، وأن البورجوازية التقليدية مرحلة انتقالية بين التخلف

وانتقدم • ان غلاب ينتصر فعلا للتطور البورجوازى ، فيجعل من (فاس) مكان الانسلاخ الذاتى عن اوهام التعلق المحــض بالقرية وشروط الحياة فيها ، اى عن الارض ومغزاها المادى عند الفلاح الفقير أو المتوسط • الا أننا نستطيع القول أن الارض فى كل هذا هى نقطة الاختيار • فمن الارض انطلق عمرو نحو البورجوازية ، ومنها أيضا كونت الضاوية (الزوجة الثانيــة لعمرو) مفاهيمها العصرية عن التمرن والحياة الجديدة لهــا ولاولادهــا بالنتيجة ، وليــس من المستبعد أن ياخذ محند نفس الطريق كوسيط طفيلى أو خمــاس •

لقد حاول غلاب ان يبين الى هذا كيف أن الارض ، مــع انضياف عوامل جديدة (ضغط معنوى او مادى من الخارج) تستطيع ان تقود ـــ فى ظل غياب الوعى السياسى ـــ الى احد السبيلين : الاصرار السلبى على الارتباط (حادة) أو كطريق الى الحياة الفاسية الجديدة ، اى الى أحضان البورجوازيـــة التقليدية (عمرو) • وليس بيــن هذين السبيلين سوى موقــف واحد : الصمود النضالى ولو على نحو فردى كما سنرى فــى قصة (استرجعتها) • أما على المستوى الفنى ، فلم يفلــح غلاب كثيرا فى ابراز مظاهر الحياة الاجتماعية فى القرية • وضعفه فى هذا المجال آت من تتبعه السطحى لاوضاع وقضايا لها مغزى محدود فى التدليل على هذا العالم بالذات ، كما من افتقاره الى خبرة كافية بالشروط الموضوعية الحياتية فى القرية • ولـــذا أصبح الوصف الخارجى فى القصة طاغيا بدرجة كبيرة ، مــع تناول دارجى فج ، لا تستقيم معناه الا بالرجوع الى هوامش القصة أسفل كل صفحة تقريبا • ونحن نعتقد فى هذا المجــال بالذات ان غلابا كان يراعى شعور القارىء المغربى ، دون أن يهتم كثير اهتمام بوعيه ومدى ما يمكن أن تضيفه القصة مــن الخبرة الى هذا الوعى • وكلنا يعرف أن غلاب له موقف متشدد

معروف في نوع هذا الاستعمال ، الا انه تنازل عنه فأوقع القارىء — من حيث لا يدرى — في ارتباك محقق ، بينما تحولت القصة ككل الى حكاية مصطنعة في قضية تحتاج الى خبرة وتناول موضوعي فني وفكري .

— 3 —

يطابق غلاب في قصة (استرجعتها) من الناحية النظرية والسياسية بين عنف ولصوصية المعمر القديم (النصراني) والمعمر الجديد وهي مطابقة في واقع الاستغلال المادي الذي تستند اليه ، موضوعيه ولا نحتاج الى ما يثبتها أكثر في المجال الفلاحي بالذات . ولذلك فان الارض تكتسب في هذه القصة بعدا نضاليا لم يسبق لغلاب أن اقترب منه . فهي من جهة رمز الحياة القروية وعليها يبنى المصير الفردي والجماعي ، كما أنها مصدر الارتزاق ، وتجسد فكرة الارتباط بمعناها الادق ، اي بالمعنى الذي تصبح فيه مرادفة لحياة الفلاح الشخصية والاجتماعية . ولم يكن بمقدور غلاب في رأينا ان يبلغ هذه الدرجة في المعالجة ، ما لم يستند الى مسألتين : تاريخ النضال الوطني في البادية المغربية ضد مصادرة الارض وتفويتها الاكراهي او الاستيلاء عليها عنوة من قبل المعمرين الاجانب بالامس . وهذه المسألة ترتبط بهذا القدر او ذاك عند غلاب بتاريخ الحركة الوطنية المضادة للاستعمار المباشر ، والرامية الى اقرار حقوق الافراد والجماعات اعتمادا على مبدأ الديمقراطية ومفهوم السيادة الوطنية . أما المسألة الثانية فهي التراث الحزبي ذاته . وتمثل الارض فيه ، والفلاحة بوجه العموم ، حلقة مركزية ارتبطت هي نفسها بتاريخ نضال الحركة الوطنية المشار اليه وبهذين المسألتين ركز غلاب على جانب حساس في طرحه : المقاومة المستمرة ، فالفلاح قدور ليس الا الاستمرار الطبيعي

لذلك التاريخ هناك حين يسترد الارض من المعمر الاجنبي ، وهو في نفس الان يتوج هذا الاستمرار هنا حين يشرع في مقاومة المعمر الجديد ، ويعارضه معارضة واعية من منطلق حفاظه على ارضه ، اى على ملكيته الخاصة طورا ، وعلى ملكية الجماعة ومصدر حياتها طورا آخر . ان غلاب بهذا المعنى يحاول ان يجد في الاستمرارية التاريخية حجة لاتهام الوضعية الراهنة ووقوفه ضدها . وهو قد اختار الفن (القصة) لهذا الغرض ، لانها تستطيع ان تربط — دون أن تعتمد على منهج استقرائي محدد — بين وجهى هذه الاستمرارية / المقاومة . ولذلك فتاريخ الاضطهاد الاستعماري فيما يتعلق بالارض والفلاح ، هو تاريخ جديد ايضا من القمع المغربي شكلا ومضمونا ازاء هذا الفلاح وتلك الارض .

يلتزم غلاب موقفا جديدا (تقدميا) ربما كان أبلغ موقف يعبر عنه باخلاص وشجاعة في قضية بالغة الحساسية . وذلك لانه يدفع الفلاح الفقير او المتوسط الى النضال ضد الاستغلال والقهر . وهو موقف لم يستطع تجسيده في قصة (الارض حبيبتي) الا على نحو جزئي / بعد فردي ، شاء له أن يكون تراجيديا وسلبيا في نفس الآن ، واذن فيه ثغرات متعددة سياسيا كما بالمقارنة مع مضمون الشعار الحزبي (الارض لمن يحرثها) . وقد ضاعف غلاب من هذا الالتزام فاحضر الى القرية التي يجري فيها الصراع عنصر الوعي الوطني (عبو ولد فاطنة) الذي — كما لاحظنا في السابق — يعني مقدما ان النضال الحازم من أجل الارض هو عنوان استرجاعها والمحافظة عليها ، وهو بعد استشهاد قدور ، عنوان المقاومة الجديدة التي ترفض اى تفسير من الخارج ، سواء كان لاهوتيا او عجائزيا ، وعبو ولد فاطنة هو الحضور الحزبي الذاتي في القصة .

كذلك جاءت القصة فنيا فى الحركات الثلاثة الاتية :

ا ــ رومانسية (المشهد الاول عن الاسترجاع) .

ب ــ غنائية وصفية (مشهد يرى فيه اقتناص خلاص الفلاح بالملكية والتعاون : الفلاح ــ الفلاحون) .

جـ ــ وحركة درامية (قطبا الصراع فيها : الفلاحون ضد السلطة القمعية) وتنتهى هذه الحركات بمصرع قدور التراجيدى والبطولى ايضا بالمعنى الفردى ، رمزا للارتباط الوطنى اليقظ والحاد بالارض ، وقد نجح غلاب فى كسب القارىء معنويا / عاطفيا لموقف نظرى سياسى فى العمق (موقفه هو بما هو شعار : الارض لمن يحرثها) . كما انتقل به فى حركة تصاعدية من اللاموقف الى الموقف ، اى من التعاطف الاخلاقى الى الاقرار المبدئــى .

وربما كانت قصة غلاب هذه وحيدة فى مجالها من حيث جدة طرحها وتطور بنائها الفنى الذى يقوم اصلا على التداخل بين المشاهد بالرجوع طورا الى الوراء (الاستمرار) والقفــز طورا الى امام (الاستقلال) ثم الدمج بين اللحظتين فى مشاهد اخرى تؤكد الارتباط والمقاومة على طول الخط . ونجاح غلاب بهذا الصدد لا يفهم الا بناء على فهم القناعة الذاتية النظرية التى انطلق منها وجعل من اهدافها تركيز محلول حيوى وعام : ذهابا = الارض للفلاح ، وايابا = الفــلاح للارض ، والتاكيــد جدلية الطرح البورجوازى هذه (لانها تدور اصلا فى فلك الملكية الخاصة وكيفية الحفاظ عليها) كانت المقاومة وكان النضال ، اى كانت الشروط الاجتماعية المحددة والفاعلة فكان النضال ، اى كانت الشروط الاجتماعية المحددة والفاعلة فكان الوعى الوطنى الحــاد بنــاء عليهــا .

الا أن غلاب من جهة أخرى يشوش على قصة متقدمة فى هذا المستوى بالاستعمال اندارجى أيضا ، وهو مـــا لاحظنـــاه سابقا ، ((امعنا فى النقل من الواقع)) (15) وبصورة مبتذلة فى راينا . (لاحظ أيضا أسماء الاشخاص : عيوشة ، قـــدور ، حمو ، عبو ولد فاطنة ...)

* * * *

أن الفكرة الاساسية التى تجمع بين هذه القصص الثلاثة هى الارض فى ارتباط مع تبعية البادية للمدينة غالبا ، وقد لاحظنـــا او يجب أن نلاحظ أن انتقال غلاب فى التعبير عن هذه الفكرة مر بمراحل ثلاثة : 1 ـــ الارض منطلقا وامتدادها ولو مع غيـــاب وعى سياسى يدفع الى الانتحار انفردى ثمنا وحياة ومصيرا ، كما يمكن ان يفضى بالمقابل ـــ مع اشتداد الضغـــط الخـــارجى المكثف ـــ الى الاستسلام والتسليم . 2 ـــ الارض منطلقا أيضا ولكنها تفضى فى غير ما حاجة للنضال او المحافظة عليها ، الى تزكية الطموح الذاتى البورجوازى لدى الفلاح المتوسط ، فيقوده ذلك الى تغيير شروط حياته خضوعا لاغراء الوســـط التقليـــدى البورجوازى الفاسى . 3 ـــ الارض منطلقا أيضا ولكن فـــى . ن وعى تاريخى / سياسى يقود بالضرورة متى كان مدفوعا . ـط مؤكد بينه وبين الارض الى المقاومة ولها صفة الاستمرار لا تنفك تؤكد نفسها ولو بتغيير الظروف المحيطـــة التى لا تعنى ـــ فى شروط محددة ـــ زوال الاستغلال ولا ذهاب القمع . ومعنى هذا ان غلاب تنتقل تدريجيا ـــ ضمن تجريب فنى ـــ نظرى ـــ من اللاوعى السياسى الى الوعى التطبقى ، مرورا بمرحلة انتقالية مقنعة ولكنها واقعية فاكد من جهة معانى الارض بالدفاع أو الوصولية او المقاومة . كما اكد من جهة اخرى طبيعة

العلاقات التى تتحكم فى هذه المعنى . فهى اجتمـاعية منخرطه أولا ، وهى اجتماعية على نحو ظاهر دون انفسح سى رضى اجتماعية ديمقراطية أو شبه ديمقراطية ثانيا . ونحن الاسسى ايضا أن غلاب فى كل مستوى من هذه المستويات كان يستند إما الى تصوره الحزبى أو على تخيله الشخصى ، وفى جميـع الحالات فقد أقر بالمطلق الثابت فى الفكر البورجوزى الذى لا يرى للملكية الخاصة من أهمية إلا بالحفاظ عليها وبتطويرها . مما يعنى أن غلاب يرى فى العلاقات الاجتماعية السائدة فى البادية المغربية والمرتبطة بهذا المفهوم البورجوازى ذاتـه ، عمليـة أساسية لجعل الارض تأخذ هذه الابعاد (خلاصية ، ذاتية ، تاريخية على التوالى) .

4 . .

أما فى قصة (دحمان) فالقضية التى ينصب النموذج عليها مختلفة من حيث طبيعتها ومن حيث الموضوعات المنصبة بها . أنها قضية اجتماعية — ميدانها المباشر هو المدينة وليسـت القرية ، ومركزها العـام هو التخلف وليس الارض ، بينمـا يتقاسم الاشخاص هنا وهناك — كل فى الشروط المحددة التى وجد فيها ، نصيبهم من القمع الاجتماعى أو الاقتصادى بحكم سيطرة نمط انتاج راسمالى أساسا يقوم على الاستغلال ويفرض التبعية .

تقوم قصة (دحمان) على تتبع مراحل التطور الاجتماعى فى حياة طفل ، بحيث يدفعها ذلك الى التركيز على تنقلاته ، فبحثه عن العمل الى العثور عليه فالاستغناء عنه . أى أنهـا (القصة) تعايش هذه التنقلات بفهم شعبوى تماما ، وكـان غلاب اراد ان يختصر به طبيعة المصير الفردى فى المجتمع المغربى الذى يتعرض له الانسان محروما وضائعا . الا ان هدف غلاب

بقى من تحتها مرتبطا باظهار واقع الحياة الاجتماعية التقليدية (فاس القديم) فسقط فنيا فى تغطية رومانسية — دون أن يكون هذه التغطية ما يفيد القصة ، ومعنى هذا ان الوصف الخارجى الذاتى (اللاواقعى) هو الذى يطور المعنى الاساسى فى القصة : الحرمان . هو الذى يهيىء الاطار الملازم لها سيعتبره غلاب انتصار الصناعة على الحياة التقليدية .

يركز غلاب اذا على فكرة التدرج الحكائى . وهو منهج تقليدى يرتبط بالحدث أصلا ، أى أنه يسير بالقصة خضوعا لتطور الزمن والتطور النموذج (دحمان) معا (من — الى ..) ، فلا يقوم سوى حكاية مبتورة . لان المجال الطبيعى لنموها يتجاوز حجم القصة فنيا وتقنيا . وربما كان ذلك من نتائج اهتمام غلاب بتبسيط الموضوعات الاجتماعية وأيضا بالتناول الكلى لها او لقضاياها الاساسية . ويجب ان نلاحظ ان غلاب بقدر ما يهتم بالتعبير عن واقع المجتمع المتخلف ، بقدر ما يمعن فى التناول الدارجى . وهما قضيتان ترتبط أولاهما بثانيهما على نحو مباشر وظاهر . واذا كانت الاولى تفيد أن القاص يعى من الناحية السياسية ضرورة التناول الواقعى الفوتوغرافى احيانا ، فان الثانية لا تفهم الا فى علاقة مع رغبة غلاب فى تبسيط هذا التناول وجعله امام الملتقى حدثا بارزا لا يتطلب مزيدا من الشرح ، فضلا عن اظهار معايشته الحميمة فى اعتقاده الشعبوية فى اعتقادنا .

ان قصة (دحمان) لا تطرح حلا معقولا من خلال الجزئيات التى تعرضنا لها . واذا كان غلاب ، كما اوضحنا ، يدين الحياة التقليدية واوضاعها التى تقود الى الحرمان وتبعث على الضياع الفردى / الجماعى — دون ملامح طبقية واضحة — باسلوب التحليل الفنى . فهو من خلال تتبع مراحل التطور الاجتماعى فى ((سيرة)) دحمان وبحثه عن العمل ، لا ينتهى الا الى الحكم

على فشله المقدم ، ومهما بدت صورة الفشل موضوعية ، بدخول الصناعة الحديثة / منافس العمل اليدوى التقليـــدى ، الا ان المصير المعلق ، فى جميع الحالات ، سيظل قدرا يطارد دحمان اينما ارتحل ، ان الاستغلال والحرمان واقعان عليه ، ولايكفى ان يتراجع العمل اليدوى وتدخل الصناعة ، لكى ينتهى الاستغلال بصورة مؤكدة . ذلك لان غلاب لاينتبه اساسا الى ان الاستغلال يرتبط ببنيات اجتماعية واقتصادية محددة نابعة مـــن علاقـــات انتاج راسمالية فى طور التكون (فى علاقة مع مضمون القصة وليس فى الواقع الحالى) . تتحكم فيها البورجوازية والراسمال الاجنبى .

5 . ١٠

اختار غلاب فى قصة (الحمدوشى) منطلقا حساسا من الناحية الفنية : على فى مواجهة مهرجان الطائفة الرسمـــى . بمعنى على ــ المهنة / الذكرى فى مواجهة الطائفة ــ الشعور / الواقع . وكان هدف غلاب مزدوجا حين سار من هذا المنطلق مع مشهد الطائفة الى نهايته الحتمية ، او نهاية على الحتمية : اولا ــ اظهار التناقض النفسى بمظهر الصراع الذى يفضى فى اخر الامر الى تغلب جانب على جانب آخر . جانب الوعـــى الوطنى ، على جانب الالتزام يناطح الوعى وبالعكس ، انتهاء باطروحة جديدة نوعيا : الحزب (المرشد) ، ثانيا ــ تستخيف مظاهر الطائفة الحمدوشية والحكم على تخلفها وسالو ماسوشيتها معا، مع التلميح الى تكوين الطائفة وارتباطها الدعائى بالاستعمار ضمنيـــا .

ويمكن ان نلاحظ ان معالجة غلاب للهدف الاول (التناقض النفسى) كانت سطحية وسياسية ايضا . فغلاب يجعل هـــذا

المتناقض يحتد ويصطرع بناء على تداعيات ذكرى خبيئة فى لاوعى (على) ليست فى مستوى الحافز المعنوى المؤثر ، ولا تستطيع ان تدفع بميكانيزمات التناقض الى النهاية التى توصل اليها غلاب يوحى من تاثير تصوره الحزبى . كما ان المعالجة كانت سياسية لانها من بنات هذا التصور الحزبى بالذات . وكان غلاب أراد يقول : لولا المرشد الحزبى وصوته النقاد لما استطاع على أن يختار ، ورغم ما يبدو هنا من أن وعى على يتحكم فيه من الخارج شرط متقدم من الناحية السياسية (المرشد ـ النضال) (فى تضاد مع الطرقية)، الا ان هذه الفكرة قاصرة وذاتية ، ذلك لان الوعى السياسى لا يستطيع ان يكون كذلك (اى وعيا سياسيا) الا اذا احتكم الى موقف ذاتى محدد ، نابع من ذات الفرد والمحيط الذى يتعامل معه . اما معالجة الهدف الثانى (مظاهر الطائفة) فقد طغى عليها الوصف الخارجى (الفلكلورى) وقد يكون هذا الوصف حقيقيا كمشاهد ودلالات ، ولكن المبالغة فيه هى من قبيل التجول السياحى . الا ان غلاب من حيث اراد تكثيف المشهد الرئيسى فى القصة (على فى / مع الطائفة) وقع فى ما يمكن ان نسميه بالمحظور الفنى (= التسطيح) .

6 . .

الا ان قصة (مصير) فى نفس سياق المشكلة الاجتماعية على وجه العموم ، جاءت اكثر احكاما من الناحية الفنية . ان غلاب حاول ان يعالج فيها بالدرجة الاولى قضية موضوعية وراهنة واساسية : وضعية العمل فى البلاد ، أو قضية الطبقة العاملة بتعبير آخر . فالموضوعية آتية بالدرجة الاولى من أن القضية التى تعرض عبد الكريم غلاب لوضعها تقوم على أسس مادية من الاستغلال الاقتصادى والقمع الاجتماعى ضمن علاقات

رأسمالية تخضع العامل للسوق وتتبعه بالآلة ، فلا يجنى (اذا جاز التعبير) من هذا الاستغلال سوى معــانــاة اجتمــاعية واقتصادية متزايدة تجعل من حياته وحياة أسرته (أى واقعه المادى المعاشى) فى تدهور مستمر . وقد أبرز غلاب هذا الجانب من خلال رموز اجتماعية محددة (البطالة ـ التسول = صورة اخرى من البطالة ..) فى شخص الطفلة عائشة واسرتهـــا عموما . اما وان القضية راهنة فذلك لان وضعية الطبقة العاملة المغربية ـ فى واقعها الحالى ـ تأخذ حجم الصدارة فعليا ، فتضع امامنا بنية محددة وعلاقات محددة واختيــارات محــددة أيضا ، يجب العمل على تغييرها بقوة الطبقة العاملة ذاتهـا وحلفائها الموضوعيين ... وهى قضية انسانية فى الاخيــر ، لانها عمدة التطور التاريخى فى البلاد ، ولان المؤامرات التى تحاك ضدها (التفتيت ـ تعطيل القوة المــادية ـ تكريس الــوعى النقابى المطلبى الضيق ..) تضع أساسيتها هذه على صعيد البحث والمعالجة بما لا يقبل التأجيل .

وقد اختار غلاب التعبير عن هذه الجوانب لحظة فردية معبرة (الطفلة / العامل ، والتداعيات المرتبطة بهما) ليستخلص منها (أى اللحظة) احكاما اخلاقية أو سياسيــة او تاريخيــة أحيانا . وقد نجحت القصة فى مستوى آخر (تقنيا) فى الربط بين العام (الفرد / فى المجتمــع) والعام (الفرد / المصيــر الجماعى) . وجاءت قصة اجتماعية ذات دلالات مختلفة فى التعبير عن الوضع الراهن الذى تندرج فيه (الاستغلال) . ولقد اراد غلاب من ثم ان يوضح : 1 ـ ان البطالة هى مصدر الشقــاء الفردى / الاجتماعى : من أين تأتى البطالة ، اى ما مصدرهــا وسببها ؟ ، 2 ـ ان الفقر / الحرمان هو الذى يجنى علــى الجيل الصاعد (مثلا ـ الطفلة فقيــرة جميلة ولكنهــا ليست

وضيعة !.) مع ما في هذا المفهوم الطبقي من تدليس ، لانــه يحكم مفهوما اخلاقيا طبقيا (الوضاعة) في التعبير عن خصوصية اجتماعية طبقيا (الوضاعة) في التعبير عن خصوصية اجتماعية هي من نتائج التفاوت الطبقي والاستغلال الذي يقوم عليه .

هذه بصورة محددة هي الجوانب التي بسطها غلاب في قصة (مصير) ، ويودنا ان ندلي بملاحظة سريعة مفادها أن غلاب عندما ينجح في معالجة قضية معينة فكريا وفنيا ، تتضخم لديه الرؤية البورجوازية بصورة واضحة ، فتدفعه الى السقوط في متاهة الحكم الاخلاقي الذاتي الطبقي بدرجة كافية .

7 . .

الا ان غلاب في قصة (الطاووس) لم يصل الى هــذه الدرجة من الوضوح النظري النسبي ، ولا الى دلالات الاحكام الفني النسبي مرة اخرى . والاعتبار الاساسي في رأينا هو ان قصة (الطاووس) هي بالدرجة الاولى قصة الحدث الفردي الذي لا يرقى الى مستوى الظاهرة الاجتماعية ، كما انها قصة السرد الحكائي الذي لا يسمح لها بالتركيب الفني وفقا للتعقيد والخاصية التي تسمح بهما الظاهرة الاجتماعية . وقد لاحظنــا من قبل ان قصة (الطاووس) لا تعكس في دلالاتها الفكرية سوى علاقة باتولوجية بين الانسان والحيوان . وهي كذلك فعلا مع مسحة رومانسية محببة في الوسط البورجوازي المائع الذي يهتم بالظاهرة ذاتها قدر اهتمامه بتعقيداتهــا النفسية . ونحب ان نضيف ان البعد الذاتي في هذه القصة رغم انه انطلق مــــن الخاص (النموذج الفردي) الى العام (حب الحيوان او التعاطف معه وهو حيوان متميز وله خصوصية جمالية) لم يؤكد الا قيمة ذاتية مثالية هي من قبيل الترف الاخلاقي . اذ ماذا يفيد في

الاخير ان يقول غلاب أن مواساته للطاووس كانت مواساة انسانية ؟؟ • لا شيء في رأينا • بيد أن هذا هو معنى آخر من علامة سقوط غلاب بشكل مفجع ، تقديراً منه للتناقضات العاطفية في « مملكة » الحيوان ، الامر الذي كان من المفروض أن يترك بصورة خاصة لجمعية الرفق بالحيوان لما لها من اهتمام جاد بالمسألة وفي المجتمع الراسمالي ••

ان هذه القصة في المجموعة لا تضيف اي بعد فكرى للقضايا التي بلورها غلاب وتعرضنا لها بدورنا بتفصيل ، ولكنها ليست فريدة في مجالها • فمثلها جاءت قصص (وانتصر الحب ــ عارية تحت الشمس (ص 120) حينما كنت في المغرب (ص 129)) • واذا كانت القصة الاخيرة قد اكدت من جديد على لسان المعمر القديم (الاستعماري) اهمية الارتباط بالارض وخصوصيته ــ وهي التفاتة مفهومة بمنطق غلاب في علاقة مع تناوله للمسألة الفلاحية من وجهة نظر الفلاح المغربي ــ فان القصتين السابقتين عنها لا تقدمان اية ارضية النقاش الموضوعي الفكري والفني ، الذي عبر غلاب من خلاله في السابق عن عميق ارتباطه السياسي بقضايا البلاد الحيوية •

وكذلك كان الامر في قصة (العائد) التي تعرضت للقضية الفلسطينية باقتضاب كبير دون أن تستطيع فهم مضمونها الاساسي (= التحرير الوطني ••)• قد لاحظنا أن غلاب حاول أن يظهر المقاومة وكأنها انطلاقة تحررية عفوية ، مما جعله من جهة يسبغ عليها هالة من الرومانسية الذاتية (العودة الى حيفا وربط هذا الرمز بالبرتقال = وهو رمز أصبح سخيفا) كما جعله يقع في اغلوطة كبيرة ، لعلها مدروسة برأينا : ذلك لان البورجوازية عادة لا ترى في المقاومة المساحة التحررية ، سوى نزعة مغامرة عفوية ، طالما انها تخرج عن « شرعية »

تنظيم البورجوازية وقيادتها . ورغم أن غلاب يتعاطف ذاتيا مع الثورة الفلسطينية ، وهذا اعتبار جزئى ، وقد يكون قوميا ولكنه ثانوى ، الا أنه من الناحية الموضوعية — بوعى أو بدون وعى — يسلبها أخص مميزاتها الكفاحية : التنظيم .

*   *   *   *

نستطيع الآن أن نؤكد ما يلى :

• أولا = ان المسألة الفلاحية فى ذهن غلاب ترتبط بالارض أى بالملكية الخاصة ، وهى تقوم على تصور حزبى / سياسى أكسبها فى العرض الفنى وضوحا نسبيا هو التعبير النظرى عن الوعى البورجوازى بذات المسألة . ومن المفروض أن نقول أن غلاب يعالج هذه المسألة ضمن التناقض الحاد بين البادية والمدينة . ولكنه لا يعى أن هذا التناقض هو فى الجوهر بين مصالح الطبقات المسيطرة فى المدينة وبين الجماهير الكادحة من سكان الريف ، وهو تناقض يسم جميع التشكيلات الطبقية التناحرة . وقد نشأ من خلال عملية التقسيم الاجتماعى للعمل ، وانفصال المدينة عن القرية وانقسام المجتمع الى طبقات ويبلغ فى ظل الرأسمالية ذروة تطوره (ان الاساس الاقتصادى للتناقض بين المدينة والريف فى المجتمع الراسمالى هو استثمار الفلاحين من قبل بورجوازية المدينة وخراب أكثرية سكان الريف ..). وعندما لا يعى غلاب هذا يضره ذلك أى :

فكريا : التسليم باساس الملكية الخاصة ، وربط نضال الفلاح (سلبا وايجابا) بالمصير الفردى المعزول فنيا : بتسطيح مظاهر الحياة الاجتماعية فى البادية من خلال الوصف الجاف ، الذى كثيرا ما ينقلب بالاستعمال الدارجى وتصيد الاسماء

المغربية انسجاما مع ذلك ، الى عملية سردية / حكائية ، تعكس فى جانب منها ، تعاملا بورجوازيا مع محيط غريب عن ذهنيـه غـــــــــــلاب .

• ثانيا : ان المسألة الاجتماعية ، فضلا عن انها ترتبط بالتصور الذى ادركنا معالمه فيما سبق ، لا تاخذ فى المجموعه سوى بعدين : فردى ، قد يعكس فى العمق ظاهرة جماعيـة طبقية او فئوية . وتاريخى . وبودنا ان نلاحظ حالا ان عبـد الكريم غلاب عندما يرتبط بالتاريخ (استرجعتها ـ مصيـر) يكون أقـــدر على التجـاوب النظرى / السياسى مع طبيعـة الظاهرة المدروسة . وذلك ناتج عن المعنى النضالى الذى يرتبط فى ذهن غلاب بالتاريخ الوطنى وبتاريخ الحركة الوطنية بالذات. فهو هنا يعتمد على جانب المؤرخ فى شخصيته بصورة كبيرة . ومن ثم فهو ينجح على المستوى الفنى فى التعريف بصيغ محددة بورجوازية وطنية غالبا ، لما يدرس . وابرز ما فى هذه الصيغ ربط العام بالعام كما فى قصة (مصير) او الخاص بالعام كما فى قصة (استرجعتها) .

• ثالثا : ان الادوات التقنية فى ابداع غلاب كلاسيكية على وجه العموم ، ولكنها محكمة البناء . بمعنى آخر ، انـه يستند الى تجربة طويلة نسبيا فى الممارسة الابداعية اكتسبته وضوحا تقنيا فجعلته خبيرا بالطابع الجوهرى الذى يربط الابداع بالمتلقى : المعرفة ، وفى اعتقادنا ان لا مجال للمقارنة هنا بالذات بين عبد الكريم غلاب ومحمد زنيبر .

وتلعب اللغة عند غلاب دورا بارزا فى هذا الطابع الجوهرى فهى اداة بمثل ما هى صيغة جمالية لمشكل سياسى او اجتماعى انها اذن اداة ايديولوجية لاشاعة الوعى البورجوازى بقضايا

المسألة الوطنية عموما • وغلاب لا يخرج هنا عن علاقاته : بالحزب من جهة ، وبطبقة الحزب / البورجوازية المتوسطة من جهة أخرى •

* * *

ان عبد الكريم غلاب كما لاحظنا فى بداية هذا البحث يوجد من حيث يعى أولا فى الصراع الايديولوجى / الطبقى . وقد أوضحنا بالملموس أن رؤيته البورجوازية هى التى تحكمت فى معالجته الفكرية ، ولكنها رؤية وطنية بالدرجة الاولى ، اى انها تقوم على وعى ذاتى سياسى بخصائص المرحلة التاريخية (اجتماعيا وسياسيا) التى تمر بها بلادنا ، فتقرر من ثم شروط فهمها لهذه الخصائص من منظور طبقى اساسا . ولكنه يتضامن بهذا القدر او ذاك مع واقع الحركة الجماهيرية فى البادية والمدينة انطلاقا من خاصية التناقض الاساسى الذى يحكم هذا الواقع (قمع / نضال) ومعنى هذا ، بعبارة اخرى ، ان غلاب يمثل صيغة وطنية ــ من صميم البورجوازية المتوسطة ، للنضال الوطنى ضد الاستقلال والتبعية والتخلف . ومن حقنا ان نضيف : ان ذلك كله فى حدود . ولا موجب للتفصيل فيه هنا . وهى صيغة تعتمد بالاساس على مصالح طبقية بالضرورة ، فتتعارض فى المرحلة الراهنة مع الاختيارات الاساسية للطبقات السائدة فى المجتمع ، ولكنها قد تتضامن معها فى شروط اخرى ، وذلك طردا مع انتقال الصراع الطبقى من درجة الى درجة ومن موقع الى موقع . لكن الاساسى فى راينا ان غلاب يحافظ فيما قدم على الاقد الادنى فى الصيغة الوطنية على مستوى الابداع ، وهذا هو المعنى الهام لقدرة هذا الابداع على احتواء القضايا الاجتماعية والتعبير عنها تعبيرا سياسيا لا معنى فيه للحياد ، ان غلاب يقدم رؤية الصراع قدر ما هى رؤية للتطور ، وجدليتها بالتاكيد تستند الى طبيعة الظرف التاريخى الحالى فى البلاد والى ابرز معلم فيه بالخصوص : التناقض بين اوسع فيئات الحركة

الجماهيرية بنضالها الوطنى الديمقراطى من أجل التحرر ، وبين اختيارات الطبقات السائدة فى المجتمع : الكرمبرادور والبورجوازية الكبيرة والبيروقراطية الادارية العليا ، ومجمل اختياراتها الرأسمالية التبعية . مما يعنى فى رأينا ان غلاب لا يقر بالحياد من جهة كما لايقر بالتواطؤ ، المكشوف على كل حال ، من جهة اخرى ، فضلا عن انه يؤكد ما للفن (القصة وغيرها) من اهمية معلومة كشكل من اشكال الوعى الاجتماعى فى الممارسة والخلق .

بــــــــاء :

ان غلاب من حيث الموقع التاريخى فى مجال القصة القصيرة يمثل انتقالا متميزا من مرحلة التأصيل الابتدائية الخصوصية المرتبطة اصلا بالفكر الارستقراطى والنضال الوطنى البورجوازى الى مرحلة الريادة الابداعية والفنية المرتبطة هى ذاتها بظروف المد الوطنى الديمقراطى منذ أواخر الخمسينات ، والتى كانت بهذا القدر او ذاك معبرة عن مواقع الفكر البورجوازى الليبرالى الجديد . ومع أن غلاب يطعم هذا الفكر بسلفية انتقائية اسوة باستاذه وزعيمه علال الفاسى ، الا انه يميل غالبا الى تأكيد قضايا ذات طابع انسانى ، هى مدلول الفكر البورجوازى ذاته (فى بعض مراحله). ان مواقع هذا الفكر طبقية ، ولكنها اساسية فى معرض التطور التاريخى ، لانها تدلل بمعنى آخر على قوانين وحركة التاريخ ، كما تدلل بصورة ظاهرة على محركه الجوهرى : الصراع الطبقى . .

ان غلاب من هذا المنظور يمثل اضافة ذات اهمية بارزة فى تاريخ القصة القصيرة المغربية . ولكنها اهمية فريدة ، ذلك ان

قدرتها على الاثراء ستبقى مرهونة بموقفين : الديمقراطية أو الرجعية . وبقدر انحياز غلاب جهة الديمقراطية الحقة ، بقدر ما يكتسب تفردا أساسيا فى مجال الفكر البورجوازى الوطنى . وعلى العكس ، فحين يميل الى الجهة الاخرى يكون قد حكم على اضافته هذه بالعقم والبوار .

جيــــم :

لقد بدأ غلاب ــ تاريخيا ــ فى التعبير عن طموحه الطبقى المشروع النظرى والسياسى ، بواسطة الابداع منذ أواخـــر الخمسينات ، بصورة جدية ، ولا شك أنه أفاد من تطور القصة القصة القصيرة العربية فى هذه الفترة (خصوصـــا فى مصر) فكان أن وضع انطلاقا من ذلك المقدمات الضرورية لارســـاء قواعد هذا الفن جماليا وفنيا ، لكنه وضع بالمقـــابل مقدمـــات الوعى البورجوازى فى هذا الفن ، أى أنه بذر فيه شروط فهمه الجديد بناء على تصور ومنظور جديدين ، لم يسبق لهما أن وجدا فى المغرب . الا أن التطور الثقافى سار منذ ذلك الحين ــ وعلى نحو شديد التعقيد ــ فى ارتباط مع الظواهــر السيــاسيــة والتطــورات الاجتمــاعيــة أو خلفها على الاصح ــ فــى اتجــاهات مختلفة ــ لا مجــال لحصــرهــا هنــا ــ ولكنهــا تنفرز عن بعضها انطلاقــا من موقفهــا من الصــراع الطبقــى الإيديولوجى وموقعها فيه . ومن البديهى أن نؤكد أن الاتجــاه التقدمى ــ الديمقراطى هو الذى يقود المعركة ضد التخلــف

والتبعية والاستغلال بصورة جدية ، كما أنه من البديهي أن نقول أيضا أن مصير غلاب الابداعى (وليس الشخصى بالطبع) سيتقرر بناء على موقفه من هذه العملية فى الشروط الحالية من تطور الثقافة الوطنية والمجتمع المغربى .

ـ اكتوبـر 1977 —

هـــوامـــش :

(1) ـ سبق لابراهيم الخطيب أن اشار الى هذه الجوانب على نحو مختصر، انظر : ايديولوجيه الكتابه .. مجله أقلام العدد 6 / 73 .

(2) ـ له انتاج مطبوع فى الشرق (بيروت ـ القاهرة) وفى تونس أيضا . وسبق له أن مثل المغرب فى لقاءات أدبية وفكرية مختلفه . وهو يقدم نفسه لهذا الشرق يعرف بالادب المغربى وناقده .

(3) ـ انظر / الفكر (مجلة) عدد خاص بالادب المغربى . ديسمبر 1976 السنة 22 ع 3 . ص 9 .

(4) ـ منشورات دار الثقافة 1976 ـ البيضاء .

(5) ـ مع الادب والادباء ـ دار الكتاب 1974 ص 155 .

(6) ـ المرجع السابق الذكر ص 155 أيضا .

(7) ـ المرجع السابق ص 152 .

(8) ـ الدكتور حامد النساج ، وجاسم الموسوى وعبد الرحمان الربيعى مثلا .

(9) ـ منشورات دار الاداب 1971 ـ بيروت .

10) La Question Agraire au Maroc, B.E.S.M. 1974, p. 115, par Bouderbala, H. Chaïbi et P. Pascon.

(11) ـ لقد تحاشينا ايراد النصوص لما يؤكد تحليلنا ، وسنستعيض عن ذلك بتلخيص مركز للتصص ، وبامكان القارىء أن يعود الى طبعة دار الاداب التى نعتمد عليها فى هذا التحليل .

(12) — يؤكد عبد الله العروى من خلال بحثه عن الاصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية في القرن 19 ، هذا المعنى تقريبا .

(13) — « مقدمات الوعي البورجوازي / محمد زنيبر في القصة » وهو بحث لم ينشر لحد الان . وان كنا قد بعثنا به الى جريدة « المحرر » في وقت سابق . ويبدو أن الجريدة أحجمت عن نشـــرة دون أن تدلـــى باعتبارات واضحة . وهو ما نرجو أن تفعله (ت. ش.).

(14) — أنظر مجلة الفكر . مصدر مذكور آنفا ص 9 .

(15) — أشار الى هذه الظاهرة الدكتور حامد النساج : أنظر : رحلة عبد الكريم غلاب مع الرواية المغربية . مجلة الاقلام عدد 9 من 11 يونيه 1976 . ص 127 .

هامش على : الرغبة والتاريخ (أقلام عدد 4)

الكتابة بواسطة الغرب

ابراهيـــم الخطيـــب

يتعلق الامر ، فى هذا الهامش ، بطرح مبادىء تحليل يمكن أن يلم بالغرب كظاهرة كتابة Ecriture تشغل قسطا هاما من النوع الروائى العربى . وانه من غير المستحسن ، فى هـــذا الصدد ، اخفاء التشابك الذى يطبع هذه الظاهرة . وان البحث فى جذورها لامر ذو ضرورة قصوى . غير ان مجال البحـــث يقتضى اعتبارها جزءا من البناء الاونطولوجى (1) للكاتب ، فى نهايـــة الامر . وبالتالى فان رؤية الظاهرة ، فى اطـــار المثاقفة على المستوى الدولى ، يجب ان يخضع لتقييم مستقل يتنـــاول خصوصية علاقتنا بالغرب باعتباره تيارا ضمن تيارات متداخلـــة شكلت وتشكل بناءنا الاونطولوجى القومى : ان الأمر على هـــذا النحو شبيه بالنقطة الأصل يؤدى تحريكها فى اتجاهات متعـــددة الى ظهور جدول بيانى من الصعب الاكتفاء بجزء منه دون الالمام ببقيـــة أطرافـــه .

المطلوب ، اذن ، هو وضع مونوغرافية مدققة تتناول بالوصف مختلف عناصر هذا الجدول ، بدءا من العناصر اللغوية والروائية ، واستئناسا بالعناصر الايديولوجية والسياسية . ومن الضرورى الالحاح على ان الاهتمام يجب أن يتركز على العناصر الاولى بوصفها تمس بقوة مستوى الكتابة فى النصوص المقروءة . فى حين أن العناصر الأخرى انما تشكل أطرا للبحث فى وظيفتها الكنائية Comotative : ان الاهتمام بالجانب الأول يسمى القراءة أما الاهتمام بالجانب الثانى فيدخل فى صلب عملية التاويل (2).

ويجب الانطلاق فى التحليل من اعتبار الرواية شكلا أدبيا غربيا (أنظر : غرونباوم) مع قبول الاستنتاجات التى تترتب عن هذه الفرضية التاريخية . ومن جملة هذه الاستنتاجات الاعتراف بهيمنة الاساس العقلانى (الذى ميز فلسفة القرنين الثامن والتاسع عشر الأوروبية) (3)، هذه الهيمنة التى تتجلى ، بصفة خاصة ، فى طبيعة الشخصية الروائية (مستوى القرينة الذى يحدد مستوى الوظيفة . أنظر : بارث) وفى الروابط السببية المتحكمة فى السرد الروائى . لكن الانطلاق من «أصولية» الشكل الروائى يقتضى التساؤل عن طبيعة الظروف التى ساهمت فى وضع هذا النوع داخل الثقافة القومية . وهنا يجب التذكير بالفروق الهامة التى تميز طبيعة السرد القصصى فى ثقافتنا (بنية قائمة على التداعى الحر المحكوم بقواعد اللعب) عن بنية السرد فى الثقافة الأوروبية الحديثة . غير ان الأهم هو الوصول الى حد التساؤل عن طبيعة فهمنا للرواية ، هذا التساؤل الذى سيقودنا حتما الى البحث فى الروابط التى تربط فيما بين حضور الغرب ، كهيكل حكائى ، فى الرواية بالرواية كنوع أدبى . ان الامر هنا لا ينبغى أن يقتصر على التخمين وانما أن يبلغ حد بحث التحولات التى كان يجب ان تعرفها الاساليب الحكائية

القومية لدى اتصالها بأسلوب السرد الروائى . وربما كـــان بمستطاعنا اذ ذاك تصور طبيعة التجاور فيما بين البنيـــات والاساليب الحكائية : القومية والغربية .

الا انه من الوهم الاكتفاء بمعاينة التحولات الحكائية دون البحث فى التغييرات التى حصلت فى لغتنا القومية لدى احتكاكنـا بالثقافة الانجلو ساكسونية ، والفرنسية ، لأن هذه التغيرات تقع فى أساس كل التحولات الحكائية المذكورة . وهنا يجب التذكير بالظروف الصعبة التى يحصل فيها التغير نظرا للطبيعة المحافظة اللغة الفصحى ، وارتباطها بكتاب دينى مقدس . ففى الوقت الذى كانت نشأة القوميات الاوروبية مرتبطة باحداث قطيعة لغويـة (مع اللاتينية) نجد أن تأصيل وعينا الثقافى الراهن جاء عـن طريق تأصيل ارتباطنا باللغة الفصحى (حركة البعث). ولقـد أثمرت عملية التأصيل ابقاء معينا على الهيكل الصورى للعبارة التقليدية . غير ان اقحام أبنية حكائية ، قائمـة على العليـة والوصف ، على الثقافة القومية الفصحى (وهو ما لم يكن مقبولا من قبل نظرا لارتباط تصور ((الحكاية)) بـ ((كتابة دونية))) قـد احدث اختلالا فى الصياغة المحافظة ، خصوصا وان النصـوص الحكائية القومية (غير الفصحى) كانت تميل الى استعمال ((لغـة فصيحة)) تقع وسطا بين الفصحى والدارجة ، وتقوم ، فى كثيـر من الاحيان ، بأداء أبنية حديثية Discursives مربكة للغـة المحافظة ، كالحديث التناوبى Atternatif والحديث المنقطـع Discontinu الخ. ان ادخال البنيات الحكائية الغربية لـم يساهم فقط فى خلخلة العبارة العربية التقليدية ، ولكنه وضـع لبنة أولى فى سبيل دمج الغرب ، ككيان لغوى ، فى مقومـات ثقافتنا اللغويـة .

يميل القارىء العربى ، عموما ، (بسبب تداخل مفهـوم

الكتابة بالاحالة) (4) الى تجاهل العنصر التخيلى للعمل الروائى . وفى هذا الصدد تجب الاشارة الى شغفه ، مثلا ، بشكل الروايـة السياسية باعتبارها تنطوى على «قضية» وليس على «كتابـة». وانه لمن اللازم البرهنة ، بطريقة او باخرى ، على ان هــــذه العقلية (المتاثــره بالايديولوجية الواقعية للادب) تعتبر الروائى كائنا شفافا . واذا كان الامر هكذا بالنسبة للرواية عامة ، فان المسألة تغدو مضاعفة اذا كان الأمــر يتعلق بنوع متميــز من الرواية كرواية السيرة الذاتية ، ان هذا النوع المعقد، الـذى يحاول الايهام بأن الذاكــرة لاتبلى وأن اللغة التى تنقــل حديث الذاكــرة جهاز محايد ، ليعطى شعورا بالارتياح للقــارىء لانه لا يحمله عبء فك المجــاز الحكائى المتبس . وهكذا يقع ارجاع الحوادث ، بصورة آلية ، الى تجارب «حقيقية» او يفترض أنها كذلك . ولقد أدت هذه الوضعية الى اعتبار الروايـة التــى تدور أحداثها فى «الغرب» ، سيرة ذاتيـة بدون جدال . غيــر أن هذا الفهم لا يخلو من اهميـة . وانه لممكن ان نـــــرى أن أكثــر الموضوعات احراجا بالنسبة لكتاب الرواية ، يقـــع طرحها ، بكيفية طبيعية ، على صعيد الحديث عن «الغــرب» كمكان شبه ــ ميثولوجى : حدث هذا بالنسبة لطيب صالــح ، كما حدث بالنسبة لمحمد زفزاف فى (المرأة والوردة) . وليس من المستحيل اعتبار رفاعة الطهطاوى سلفا لكل أولئك الروائييــن العرب الذى جاءوا من بعـــده . لكن فى مقابل الرغبة فى الوصف والتطلع الى المعرفة وحب المقارنــة ، اصبح التامــل مدخولا . اذ لم يعد «الغرب» مجرد «مكان هناك» وانما أصبح جزءا مــن تاريخ الكاتب : تاريخه الشخصى ، ومن تاريخه القومى الحافل بالتقلبات ، كما أصبح ابنية حكائيــة لا فكــاك له منهــا (5). اليست المسافة شاسعة فيما بين نقد «روح الغرب» فى (عصفور من الشرق) ، و «قتل الغرب» ممثلا فى (سيمون) فى روايـــــة

(أصوات) لسليمان فياض ؟ المسافة شاسعة على مستـــوى المضمون ، ولكنها دانيـــة على مستوى الكتابة : مسافة العلاقة المزدوجة ، والجدلية بالغرب ، داخل كياننا الاونطولوجى ، أن هذا هو ما يفسر كلمة الطبيب فى ختام (أصوات) مشيـــرا الى (سيمون) الصريعة : «موتنا أم موتها ؟» . فموت الغرب يعنى، أيضا ، موتنا : موتنا الاونطولوجى .

وكتابة الرواية تعنى، من جهة اخرى، الكتابة «بلغـــة اجنبية»، بعبارة اخرى : انجاز «ترجمة» عن أصل غير موجود.

أ. الخطيـــب .

هـــوامـــش

(1) ـ يتضمن البناء الاونطولوجى ، كذلك ، الابنية اللغوية وانساق التعبير المختلفة .

(2) ـ المقصود بالتاريخ ، هنا ، ايجاد علاقة « غير ضرورية » بيـــن بنيـــة الكتابة والسياق الواقع « خارج الكتابة » : السياسى ، الاجتماعى الخ.

(3) ـ لم نرد ادخال القرن العشرين لسببين : أولهما ، أزمـــة العقلانيـــة الاوروبية (التى ترتبط أساسا بهذا التاريخ) وثانيهما ، لان بنية السرد الروائيه فى الادب العربى الحديث لا تمت بصلة الى التحولات الحكائية العريقة التى حصلت فى مطلع القرن العشرين (راجع : ميشال زيرافا « الثورة الروائية »).

(4) ـ تصور الدال كمدلول ، أو اعتبار الدال مجرد « وسيط » للمدلول . فى كلتـــا الحالتين ، يتم انكار هوية ، واستقلال طرفى الدليل ، لكن من الضرورى الانتباه الى أن الامر ليـــس ممـــارسة تقنيـــة ، وانمـــا ايديولوجية .

(5) ـ انه من الممكن ، فى هذا الصدد ، تنمية بحث يتركز حول خصـــائص بنيـــة « الرحلة » فى الرواية العربية .

ابـــراهيـــم الانصـــارى

فواصل بين القلب والعين

تطـــالعنـــى جوقـــة الوجوه فى غســـق
الحـــزن المتعـــب
وفـــى أسفـــار الكـــاس
تجـــرع دم القلب الذى ســـار الى المنفـــى
وطنـــا فى زنـــزانـــة ٠
تطـــالعنـــى عـــواصـــم العـــرب الانس
ارســـم الجيـــاد التـــى خلفتنـــى على معصم
المـــدن المحـــاصـــرة
اخط القبـــل التـــى اســـرتنـــى على قضبـــان
الغـــرف التحتيـــة
نـــازلا ٠٠٠ أبحـــث عن وطـــن /
مقـــاتليـــن /

واطفال يموتون كالفراشات فوق الجليد

دثرت عيونهم ريح حدائق الشمس التى اغتيل

حراسها

دثرت عيوننا . . .

خلفتنا .

لماذا تجيئين ؟

وكل الاحياء ، المدن ، الارصفة

المترعة الحب / تسرح فى مواسم أسر نهديك

كاشفتها ليلة ... ارخت فى حزنى

توحدنا

قبلتنى

تمردنا

وانتظرتها .

ليكتب جلادو الارض الآن موتى !!

* * * *

تطالعنى عواصم العرب الانس

اطالع عواصم العرب الدم / الذبائح

اخافها ورائى

واخلفهـا تهـز البطـن لضيـوف الشـرق .
وأمـراء البتـرول علـى شـوارعهـا
يمـارسـون العـادة السـرية .
أخلفهـا ورائـى ، ،
ترمينـى خـارج الابـواب مع الاطفـال
فقـراء الارض
وعيـون العشـق القـادم من ليـل بغـداد
و « جـامـع الفنـاء »

* * * *

تطـالعنـى جوقـة الوجوه المتعبـة .

* * * *

أحرقـوا فى عيونـى مسافـات العشـق
قصـائـد حـب
عربـات تجـر ليـل العمـال على أفخـاذ
المـدينـة
ينـزع البوليس السـرى هـويتهـا
يسجـل حـروفـا علـى كل الابـواب
يلتقط حروفـا من كـل التسجيـلات

ويطـــاردنـــا

يطـــاردنـــا ... لكـــن مســـافـــات عشقنـــا كبيرة

* * * *

« رســـالـــة مفتـــوحـــة للرجـــل الحـــى »

« جلـــــــــــول !

يـــا ايهـــا المصلـــوب على نعش السنيـــن
البـــــاردة

قدمـــاك شهـــادة كـــل الاجســـــاد
المهزومـــة

جـــلـــــــــــول ! !

هـــا انـــت تضـــاجع اعوام الكدح السبعيـــن

لا شىء يحبـــل عينيـــك

دمعتـــان فقـــط تغســـلان نتـــوءة التـــاريـــخ » .

* * * *

ترامت فى فرحـــى مغنيـــة الســـاحـــة

صـــرخـــت

صـــارت رغبتـــى للعـــراء اكبـــر من حبـــال
المشنقـــــة

تدليت حتـــى وطأتنـــى الايـــادى الثلجية

تــدليــت ،

تــدليــت ،

تـــدليـــت ،

تدليــت ، وكان علال (1) اول المطرودين

من مكـــاتــب العمـــل

وقلبــى هـــا هنـــا الـــرهينـــة .

*   *   *   *

احـــاول الان ان اعبـــر دمـــى

تقتـــريبـــن

احـــاول الان ان اكتبك عنـــى خـــاتـــم

أصبعـــــى ،

تبتعـــديـــن .

قـــالـــوا : من اين ياتـــى عشق الوطـــن ؟

قلـــت : من البحـــر ياتـــى نهـــرا

عصفـــورة

تتخطى مغـــرب الســـادة المحترمـــين .

لمـــاذا تجيئين حبيبتـــى ؟

لمـــاذا تجيئيـــن ؟

عنـــدمـــا التقينـــا

كـانـت احذيـة الطـرد فـاصلـة

مـا بيـن

القلـب

والعيـن •

مراكـش   ابراهيم الانصارى

---

(1) « علال مكوا » : شاب من حى سيدى يوسف بن على فصل عن كل شىء وحتى عن « عمله » كبطالى.

تخطيطات تجريبية

أحمد بنميون

1 ـ الهزيمة

ستتملك الرحلة المقبلة
في المكان الذي لم تر
والزمان الذي لم تعش
بالرؤى ـ الاسئلة
بالتوهم فيما تلامسه الذات أو تعشق
النين من زخرف للمسافات : ان الحقيقة
ان يمسك المرعى بجوهرها ـ الوهم كابية ذابنه
واذ تتقى بالاسناء يعاودك الخوف من رحلة مقبله
ومن نظرة تتوهج فيها الرغاب
فتنهض فيك وتعوى ذئاب
... تتداخل في لحظة قاتله

بوعيك اشيـــاء كل الزمان الذى لم تعشـــه ،
المكان الـــذى لـــم تـــره
وتكتمـــل الدائـــــرة :
يطوقك الآن رعـــب وتنطـــق فيك المخـــاوف
ــ انـــك تهـــذى
ــ هل الوعى فى القـــوم يهـــذى ؟
أم الرعب يحيى الوساوس فى يقظة قاتلـــه ؟
تدمرك الرحلـــة المقبلـــه
بثقـــل رؤاك عليـــك
والوانها الدم والفر ، هذى سنابك خيل عدو
يدوس بها فى عيـــون الاحبة والعائلـــة
وتجلس وحدك حتى يقاربك المـــوت ...
كم ذا تفاجؤك النار فى حيرة الاسئلـــة .

78/4/12

2 ــ الظمـــــا :

سينشـــق هـــذا الزمـــان
ليدخلنـــى ظلمـــة القبـــر
فافتح جدران زنزانتـــى عن فضاء يهربنى
عن يديـــه بقيـــة دهـــرى

لاجنحة الشعر السوان أرضى

والقلب حين تفيض دموع ، سخاء الينابيـ ..

.. ـع تسقى عطاش الصحارى

ولكننى حين تفقد اجنحة الشعر لون التراب

فيظمأ قلبى ، تقشر حنجرتى

وينهار فى داخلى امل فى الفرار ، الجنون ،

الخروج الى اللانهايات ...

والمستحيل ، اتحرر من كل ضغط العذاب

تغلـق، حلـم الاضـاءات

ارفع جدران زنزانتـى .

تتشقق من ظما شفتـى وحنجرتى غنا

امجـد فيه الينابيع مفتـرة ،

واطالب بالارتـواء .

78/4/14

3 ـ الذهـــن :

هـد اللامرئى ولا اسمعـه

تملا صـدرى ، فأضيـق ، رؤاه الصدئـه

ارفض ان يجعلنى ظلا للفطرة او لنقيـد

ارفض ان يمــلا دربى اشعاعــا
من ميكانيكا منطفئــه
اتمرد ، ارسم شكلا تجريبيا : للــذات وللضد
هذا اللاهث ملء فؤادى منه يضج الآخر فى
اطلبه عينا بالضوء الغامر ممتلئــه
معرفة تبعد عنها المفترا
نبعــا دومــا مفتـــرا
لامجد هذا اللامرئــى واسمعــه
اخرج عن كونــى الدميــة شدت بقيـــود
مثل خيــوط لتحركها اصبعــه
لكنى، بدءا وختاما، ها انذا ذهن لا يقوى على التفكير
اذ يغضب هذا الآخر فى ،
نتشائم دومــا فيحاول تدميــرى .
78/5/10

4 ــ الضــــوء :

من منظور شهيد مغدور بالطعنة فى الخلف .
تتوهج كالشمس فيأتلــق الجسد كحقل ورود
وشقائق نعمان فى الصيف/فتملأنى اضواء
الشمس جراحا ، اتوهج فى الضــوء وفى

الورد ، أمر بدرب الشهداء فاسألهم :

ان اتجذر فى الموقف / أن يتعمد وردى بالضوء

وبالمبدا ، أن تشعل أشعارى مصباحا ،

من منظــور الشهــداء

يمـــلانـــى الشعـــر جراحــــــا

اغدو حقلا يتماوج بالسنبل والاشـــواق

وانشيد طيور فى الافــق الممتــد

عن انسان آت ... يغمره ضوء شموس الغد

78/5/11

قراءة فرحة في كتاب التعازي

الدامون نور الدين

يجمع الريح همسه المبحوح
قبلات حب محمومة على جسدك
يعيد تشكيل أطراف ((غسان)) ،
تتشكل
يحدق فى الوشم طويلا ،
يعانق جسدك المحمول على أكتاف
بيروت ،
تزغرد ((أم سعد)) ...
هذا فرح الشهداء / يا وطنى الظامىء
يقاسم تابوتك الموشى بالمراثى
سيره فى أجاج الماء ،
تدفق أيها الماء
يازمن النهر /

هــذا فــرح الشهــداء

(لا يصل الحبيب الى الحبيب

الا شهيدا او شريــدا)

او متوهجــا غــى الانفجــار ،

فى حلــم قلبــه /

وتلك هى الجريمة المتنقلــة

على صهوة الايادى المأجوره

تشحن اجنحتها السوداء فى البيت الابيــض ،

وتطير الى باريس ، مرافىء البيضاء ، بيــروت

تكتمــل فى الدم والرصــــاص

وتكتمــــل مسيرة الريـــــح

وتكتمــــــل دورة الـــــدم

فى حمــا رحــــم الارض ،

* * *

وماذا يملك الشعر فى ساعات القتل البطيئــة

لمــا يتحــول الــدم فى حمأ الارض

ذاكرة تضيىء عيــون الشهداء ،

لما حدقات السيف/ترقب صهيل الخيــل ،

فيضــــان الهمــــس

طمثـــا يجـرى فى الينابيـــع ،
اســـرار الميـن المنيفـــه ،
ماذا يملــك ؟ / ايغرس قيظــه فى ذاكــرة الاطفـــال
البريئـــه
اينسف نبعه الحب وينبـــوع الضحك بالعينيـــن ؟
ايعلن عن خوفه فى عرى الخوف اللامتناهـى ؟
هذه افراســـك يا وطنى ،
بعيونها تقاويـــم الشمس القادمـــة ،
تتلـــو اسمـــاءك الحسنـــى ،
واقوالا بقيت رمـــلا بشفـــاه موتـــاك ،
وهــذه كفـــى المحروقـــة
بسرداق العـــزاء
تقرا فاتحـــة التقاء الارض بجرحها ،
يعود اليها على حد نصـــال القتـــل ،
بيـــاض الفرحـــة الفاتـــن
تقرا اوراق رعد ينمو فى شجـــر
المحيـــط والخليـــج
وهذا جسدك يا (جنبلاط) يلتقى فيـــه
دم (لوركا) الذى (لم ينقذه حتى الالـــه)

دم المهدى المخلوط بحامض الكبريتيـــكى
دم «غســـان» المرشوش على قمصان الشجر ،
هو المـــوت قوة الاشياء قدرة على العشـــق ،
وجهك هذا المغمور بالوحل والدم
عينـــك هـــذه التـــى تسعـــى
يتجمـــع فيهـــا كـــل صوتـــك /
تقول شيئا يشتعل كمرايا البحـــر
يذهـــل الاشجـــار ،
دورة الفصـــول
يخافه القتل فياتـــى من الطرقات الخلفية ،
فى لحاف الرصاص الامريكى / الليـــل العربى
وها هى الاشجـــار تحمل عنـــك
وزر النجـــم الذى بعينـــك ،
رهج الشمس التـــى بقلبـــك ،
تقاسمك فرح العودة الدموية /
ويحمـــل النهـــر اسمـــاءك بيمنـــاه
ويحمـــــل كتابـــك بيســـــراه ،
يوزعـــه فى فـــرح المـــاء
على الارز وقامات «التل» المعدنيـــه /

طيــورا من بـــــراءة ،

تدل الطريق علـــى أصابع ((آخيل))
تكبر فى الحلم وعلى زنـــاد الضـــوء ،
تباركـــت ذاكرة الطير وطريقا يبـــدأ
من ازنـــاد ،
تبارك كتابـــك قلبـــك المفتوح للشمـــس
والاقمــــار
تبارك دمـــك زمرده فـــوق صـــدر
بيـــروت ،
تبـــارك حلمـــك يكســـر المرايـــا
يلبـــس وجـــه الحبيبـــه ،
صهد الطريق / حيث تطلع اقمار عيونها/
تبارك حمـــا الارض المسنـــون
ينبـــت الـــورد والريـــح ،
تباركـــت الارض
تخرج من جســـدك المطفـــأ
وتسير على بنادقها نحـــو البحر الجميـــل ،
تبـــارك قبرك وقبر ((غســـان))

مضاءان بعيون عشاق احيـــاء

برائحـــة البـــارود ،

يدخـــلان مملكـــة العشـــق ،

تعلقانه راضيان مرضيان على مداخلها المرمرية/

قمصانـــا مبلولـــة بالعـــرق

وجرحا عذب القلـــب طويـــلا ...

ومن فتحة تتوســـــط القبـــران

تخرج اقمـــار خضـــراء

لتسكـــن ادغـــال صـــدر آخـــر

به عطش الولادة من القبر والماء ....

يتسلق روحى هسيس من الفـــرح والرعـــب ،

... اخـــاف ان تالـــف عيونـنـــا

الدمعـــات الخرســـاء ،

تسقط على صـــدرك وصدر الشهـــداء

تيجانـــا صغيـــره

تنسينا السير نحو البحر الجميل/وجه الحبيبة/طلقات الليـــــل

بجنـــــــاح الريـــح /

فتهجـــر الشمـــس السمـــاء

يهجر المـــاء الانهـــار

يهجـــر الطيـــر الاشجـــار ،

تنكرنا الارض / تبعد عنا صلواتها / ماءها /

غيمهـــا المنشـــور ،

لا تساقينـــا حلمـــات الامطـــار ،

لما نعود اليها فى خطيئة الجفاف /

فى أكفان بيضاء لادم فيهـــا ،

بعيـــون تبكى لا نجم فيهـــا .

الدامون نور الدين

1977/4/4

زيــــد حســن

السجيـــن

كــالام الحنـــون ،
كيــد الارملـــة
تظـــم فـــى حنـــان ،
رضيعهـــا البـــريـــىء ،
تضمنـــى جـــدارك أيهـــا السجـــن .
جـــدارك المتسخـــة
الآهلـــة بالحشـــرات
الحشـــرات المنكمشـــة فـــى صمـــت
مـــن الجـــــوع
لا تجـــد فـــى جسمـــى دمـــاءاً تمتصهـــا
لقـــد امتصـــوا كـــل دمـــى

جدارك ايها السجن
المذائبة فى جلباب السكون
بذراعيها السوداء
تظم هيكلى النحول
شخصى المجهول
قطرات الماء
المتساقطة فى انتظام
على الحائط الحزين
دموع مواسية
عبرات يأس
على الاسماء المنحوتة بالاظافر
على الاشباح الهاربة من المقابر
الاشباح تهتف بى
تناديني
ارد بالايجاب
لكن اين المفر ؟
اين الباب ؟

الكلمات الثائرة

ثارت الكلمات

من بين أسطور الخامدة

من بين الاسفار الجامدة

من بين كل واه وتفيه

كل عتيق مضمحل

ثارت

لتكون كتاب الغد

صرخت لتمحي معالم سطور الحاضر

وتعلو فوق خطوط الزمن الغابر

عقول صماء

لم تتقبلها

تجاهلتها

فألحت

ارادت تركيبها

تفرقت

ورجعت فى تركيب ارادته

قوة اكثر

مرة واكثر

حقيقة تقهر

لا تتقهقر

احلى لنا نذوقها

لذوقهم علقم مر

منا تخرج

اليهم قذائف تنفد

يلينون ؟

يتعنتون ؟

تجبروا !

ويتجبرون !

كل هاته الكلمات

في حلوقنا نغمات

لن تموت أبدا فى الحناجر

لن تعرف مثلنا ظلمة المقابر

ستبقى بعد ثورتها

خالدة في القلوب

في الافكار

وسلاحا في الايادى

نزرعها ، فتثمر ، وتنتشر

باقات من يد ليد

لــن تــرضــى بالحــاضــر
تنشـــد الغــد المــزاهــر

زيــاد حسـن

احمد زيادي

عباس والعمود

قصـــة قصيــرة

خبت الفرحة المتألقة في انعيون ، غارت العيون في المحاجر، انتحرت البسمـــات على اقشفـــاه اليابسة المغفورة ، علـــت اصوات الفرقعات العنيفة ، وازيز الرصاص المتطاير ، تساقطت الاعشاش من بين الاغصان ، تهاوت الاشجار ، أمسى الذعر الوحشي الجاثم على كل قلـــب ، الواقف بكل باب ، الخانق لكل فسحــــة .

و (عباس) ليس الا مواطنا بسيطا لا حول له ولا قوة ، ليس الا ساق نبته برية أدركته قرة الهجير فجففت النسغ فـــى شرايينه قبل الاوان ، ولم تحمه فروع الغابة الباسقة الظليلة ، فجرفته الحملة الى المجهول . ما سئل عن رأيه ، ما قيل له عما يراد به ، ما عومل كانســـان ، بل سيق كالبهيمة ، وحمل كالبضـــاعـــة .

و (عباس) ليس الا مواطنا ساذجا ، لاحول له ولا قوة ولا رأي ، اخذ ليـــلا ، وألقى به في سيارة (جيب) ، وسيـــق

محشورا وسط عشرات (العبابيس) الى تكنة قصية ، تهتز ارضيتها الرملية تحت خطوات الفيالق الثقيلة ، وتختنق سماؤها بقبضة الخـوف .

و (عباس) ليس الا مواطنا يحب أن يحيا في أمن وسلام ، ولكنه لا حول له ولا قوة ولا رأى ، أودعوه مع رفقـائه حجرة جرداء ، والقوا اليهم ببعض الخبز اليابس ، والحساء المـر ، واطفاء أنهلهـل ، ومروهم بالنوم فور العشاء ، ففى الغـداة تنتظرهم أشغال تنوء بحملها الجبال الاطلسية . ولم يناموا ، باتت أجسامهم في الحجرات المختنقة ، وطارت عقولهم وقلوبهم الى قراهم المتلفعة بالحزن والسواد ، تجوس الدروب والحقول، تعانق الاهل والاولاد ، تبكى المحاريث والفؤوس والمناجل .

وبات (عباس) يواسى الوالدات النائحات النادبات ، يجفف الدموع في عيون الاطفال ، يشعل النور في المشاكى القابعة في الإركان الحالكة السواد ، يبشر الآباء بعودة فلذات اكبادهم ، يوارى أحزانه المتراكمة وراء ابتساماته التي كـان يروى بهـا القلوب الجرداء ، يطفئ بها النيران المتأججة في النفوس .

وكانت عيناه تتطلعان الى السماء الدامسة ، كل العيون كانت تتطلع اليها ، لكن لم تطل منها نجمة ، بل كانت تسود في كل لحظة ، حتى كاد الناس ينسون أن الفجر لابد آت ، لتكمـل الحياة دورتهـا .

نفخ في الصور ، ذعر المنضغطون في غرف الثكنة ، آبوا الى رشدهم ، هبوا على عجل ، تدفقوا في الممرات ، احتشدوا في الساحة الكبرى ، انحبست الانفاس ، أختنق اللغط ، سرت حركة مباغتة وسط الحشود ، تدفقت العيون المستطلعة الوجفى فوق الاكتاف والرؤوس ، دبت همهمة واهنة وسط الجموع ،

تعالت صيحات الضباط وهتافاتهم ، ترامت كالحجارة ، اشرأبت الإعناق ، تمزقت الكتلة البشرية المتراصة ، انتظمت فى طوابير طويلة ، قيدت كل فرقة الى مركز خاص .

و (عباس) ليس الا مواطنا طيبا ، لا حول له ولا قوة ولا رأى ، حملته رجلاه الى الساحة اثر (عبد القادر) فى طليعة الصف ، مشى يؤرجح يديه ، يضرب الارض ، مرغما ، بحذائه الثقيل ، يرفع راسه الى سماء مزدحمة بالسحب المنفـسمـة ، ارجاؤها تضيق عن جناحى طائر ، كيف انت الآن يا وجها أعرفه بين آلاف الوجوه ، الاخاديد الغائرة تنتشر على صفحته ظلالا من الطمانينة والامان ، ورائحة العرق المنصبب من الجبيــن والذراعين تعبق فى ارجاء الغرفة ، تملا الدنيا رضا وسعادة . لا شىء ينسينى أسحارك وأنت تفتفين حجب الليل بحثـــا عن اللقمة ، ولا شىء ينسينى اماسيك وانت تبددين سجف الظلمة بنور شمعة هزيلة ، بحثا عن شبر تمددين فيه ذراعك ، فاهرع اليه متعثرا باسمالى ، ملقيا براسى عليه ، لادفن شقائى فى دفئه . ولا شىء ينسينى الارض تتشقق امام محراثى ، وقدماى تنغرسان فى قلب الارض ، ومنجلى يعانق الســنــابل الحبلى ، اضمها الى صدرى العرقان ، اشم فيها رائحتك يا امى ، فاعانق الدنيا بحنـــان وحب .

والجنود ليسوا الا مواطنين بسطاء طيبين ، لا حول لهم ولا قوة ولا ارادة ، اوقفوهم فى طابور طويل ، امام عمود ممتد فى الفضـــاء ، فوقفـــوا .

أمر ضابط (عبد القادر) بالتقدم ، هرع الى العمود ، وقف رافعا يده وراسه ، ساله الضابط بعنـــف :

ــ ما هذا ؟ !

رفع (عبد القادر) عينين متعبتين الى قمة العمود ، فكر قليلا :

ـ انه .. انها .. انها خنشة طحين !!

ـ ماذا تقول !؟!

ـ ايه .. انها .. انه قميص .. أو غطــاء ! ؟

دوت في آذان الطابور صفعة مجلجلــة ، تتبمت العيــون الحبيسة في المحاجر العميقة ، مشهد (عبد القادر) وهو يؤخذ من أذنه بقوة ، والتقطت الاذان طلقات لسانية حادة :

ـ هذا أمك وابوك وزوجتك وولدك ...

عادت الاعين المذعورة تنتقط (عبد القادر) المركول ، وهو يعود الى موضعه في طليمة الصف .

ثم امر (عباس) بالتقدم ، فما قويت رجلاه على حمله . تماسك ، دنــا من العمــود .

ساله الضابط بحدة وغضب :

ـ مــاهذا ؟

وبارتباك وخوف ، تصاعد صوته المفارق في بئر احزانه :

ـ عــا .. عــا .. عائلة (عبد القادر) .

الدار البيضـــاء : احمد زيـــادى

محمد ابراهيم بوعلـــو

الحجر الاساسى

(اقصوصـــــة)

قاده حماره الى ظل الشجرة ووقف . ونزل عن حماره ، وتمدد على العشب بعد ان ربط الحمار من رجليه الاماميتين .. وأطلق لبصره العنان يجول فى هذه البقعة المعشوشبة الشاسعة، وما لبث ان أطلق لذاكرته الحبل على الغارب ، وهو يجول ببصره فى هذا المكـــان الذى تنتصب فيه حجارات مبنية بالاسمنـــت على شكل عمود يبلـــغ ارتفاعه المتـــر..

يوم قيام هذا العمود يتذكـــره كما لو كان بالامس فقط ، مع أنه مر على ميلاده أكثر من ثلاث سنوات ، يومها طلبوا منه أن يحمل اليوم الاحجار على حماره مقابل اجـــر .. لم يسالهم لأى شىء تصنع هذه الاحجار ، ولكنه اكتفى بسؤلهم كـــم عدل عليه ان يحمله من (الكاريـــان) الى هذا المكـــان .. تعب يومها حماره كثيرا ، فالنحـــر كان على اشده ، وهو ملزم بـــان يضربه لينتهى من مهمته فى الوقت الذى حددوه لـــه ..

كانت الجموع من الناس تقدم تباعـــا الى ان غصت هـــذه البقعة تماما .. يومها شاهد أناســـا لم يسبـــق له أن رآهم

فى المنطقة ، ومعهم عسكر ورجال درك .. لقد اقبلوا لتدشين مستشفى المنطقة ، وخطب الخطباء ، وصفق السامعون وزغردت النساء ، وما أن انتهوا من وضع الحجرة الأخيرة فوق العمود المنتصب حتى تفرق الحاضرون ، وظل هو فى هذا المكان تحت ظل الشجرة بجانب حماره .. وطلب من الذين كلفوه بجلب الحجارة أن يسددوا له أجرة فطلبوا منه ان يتصل بهم غدا .. ثم أصبح الغد لازمة يكررونها على سمعه الى أن ينس ، ولم يعد يطلب شيئا .. وكاد أن ينسى أنهم اضاعوا أجره لولا أن ذاكرة حماره كانت قوية، فهو فى كل يوم يحمله الى هنا مع القيلولة ، ويتوقف ليذكره بأن هذا من أضاع عليه أجرة يوم كامل من أيام الصيف الحارة ..

كان يعزى نفسه بأنه استطاع ، رغم عجزه، أن يساهم فى بناء المستشفى ، بل كان أول المساهمين ، فاذا لم ينفحوه دراهمه فان من حقه عليهم أن يدخلوه المستشفى يوم يشيد ويحتاج اليه ، ولكن المستشفى ظل فى بدايته ، بل ان الحجرات الأساسية اصبحت تتهدم ، وفى استطاعت الامطار والرياح أن تتلفها تماما ، وهم لم يتذكروا أنهم دشنوا، فى يوم ما ، وفى بقعة ما ، مستشفى لسكان المنطقة ، وهو موقن بأنهم لن يتذكروا لانهم لم يتذكروا بأنهم ما يزالون مدينين له بالحجر الأساسى ..

كان الحمار يقفز برجليه الاماميتين من حين لآخر طلبا للكلا ، وهو ما يزال ينظر الى النصب التذكارى فى شرود.. متساءلا لأى شيء يصلح ، كان السؤال يلح عليه كل مرة يجلس فيما تحت ظل هذه الشجرة ولكنه لا يجد جوابا شافيا ..

فكر ذات مرة ان يفك الحجارة عن بعضها البعض ويبيعها، ربما أن بـذل جهدا ليس فى امكانه ان يبذله حتى وقفوا حوله

يهددونه بالسجن ، وبالذعيرة ، وب. ولكنه اجابهم بان الحجـارة حجارته ، وأنه لم يأخذ مقابلها ولو فرنكا واحدا .. غير أنهم نكروه بـأن الامر لم يعد أمر حجارة عادية ، بل حجارة مسكهـا أناس محترمون ، ولذا أصبحت محترمة ، ولا حق لأحد فيهـا .. يومها لم يفهم ما يعنى مثل هذا الكـلام .. ولكن أحدهم رق قلبه له واخبره بأن عليه ان ينسى هذه الحجـارة فسيعوض له الله خيرا عما قام به نحو المستشفى .. ولكن المستشفى أين هو ..؟

نصب تذكارى وسط بقعة شاسعة لاى شيء يصلح ؟ وهو من يستطيع أن يفهمه .. وحيد آن هاهنا فى بقعة نائية ، وبينهما حمار يبحث عن كلا أخضر ، وهو ما يزال يفكر لاى شيء يصلـح هذا النصـب التذكـارى ..

اقترب منه كلب شريد ودار حوله دورة أو دورتين واتجه نحو النصب التذكارى ودار حوله وهو يشم حجارته بانفه ، ثـم ما لبث أن رفع احدى رجليه الخلفيتين وبال عليـه ..

ونهض صاحبنا واقفا ، وهو يضحك ثم اقترب من حمـاره وفك رباطه ثم امتطاه ، وانصرف وهو يقول فى نفسه : «لقـد استرحت .. اما الآن فاننى أعرف لماذا يقام الحجر الاساسى».